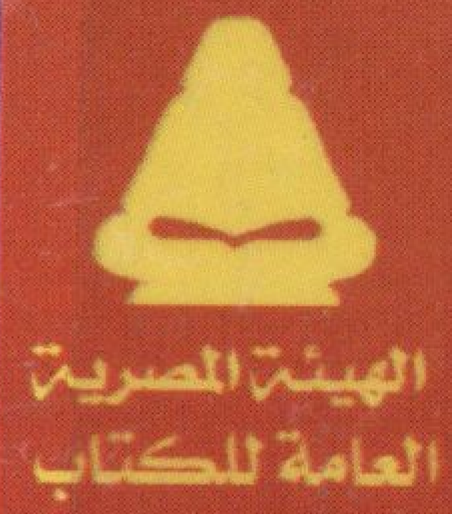
قراءات جديدة

معاً.. بلا حدود

«رواية»

محيى عبد الحى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

(١٦)

إشراقات جديدة

معًا.. بلا حدود

رواية

محيى عبد الحى

دراسة

محمد قطب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

إشراقات جديدة

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

عبد العال الحمامصى

مدير التحرير

حزين عمر

سكرتير التحرير

أحمد توفيق

المخرج الفنى

صبرى عبد الواحد

تصميم الغلاف

الفنان محمود الهندى

إهداء

إلى زوجتى

الشعاع الذى يسرى فى وجدانى

وطفلتى عبير ونجلاء

الأمل والحياة

واخوتى وأهلى

.. وزملائى واصدقائى .. وأهل مدينتى

باقة من الزمن الجميل الذى مازلت

اسمع رنينه حتى الآن..

كل الحب والتقدير

محيى

١

بصيص من الأمل تعيش به، تنتظر حلمها المنكسر فى سراديب الحياة، آملة عودة حبيبها الذى غاب عنها طويلاً.. تنتظر الفارس الذى سيقتل وحدتها، ويقضى على الحزن الساكن فيها، ويقتلع التعب الكامن وسنوات الملك الضائعة.. أنها تنتظر وتنتظر وما أصعب الانتظار!

فى غرفتها جلست.. تعاود ذكرياتها، تناجى طيف حبيبها بعد أن غادر النوم جفنيها.. فتحت النافذة، وظلت تمعن النظر، تتأمل الأشجار والورود، وهى تتمايل ترسل نجواها .. أخذت تسير فى أرجاء الغرفة.. تتلمس وسادتها، تسامر بساطها الوردى، وتنظر لذكريات فساتينها أمام مرآتها.. أخذت صورة حبيبها واستلقت على بساطها وراحت عيناها بعيداً.. تتذكر البالطو والإيشارب والنظارة، وهى تجلس فى إحدى الحدائق تقرأ المجلة، وحبيبها الذى جلس بالقرب منها يتأمل.. يحاول أن يبتدع طريقة للحديث معا.. لكنها لم تعره أى انتباه.. أما هو فقد ازداد ولعاً بجلستها، ولا يدرى ما الذى جذبه إليها.. اقترب منها أكثر.. وهى غارقة فى القراءة، ربما تتصنع ذلك.. الدقائق تمر، وهو لم يفعل

شيئاً سوى الصمت والنظر إليها.. لا يدرى إلا أنه وقف مواجهاً متردداً وبصوت مرتبك قال:

ـ صباح الخير..

لم تعره انتباهها.. ازداد توتراً وبرغم ارتباكه الشديد، إلا أنه كان سعيداً.. قامت نافرة دون أن تلتفت وغادرت المكان.. أما هو فقد جلس يؤنب نفسه على مضايقتها.. ومر اليوم، ولكن اللحظة عالقة تطارده وتستحوذ على وجدانه، فأصبح يداوم على ذهابه إلى هذه الحديقة.. ينتظر الحورية التى جذبته وأيقظت مشاعره فى لهفة شاردة.. راح يجلس على مقعدها يتصفح المجلات والجرائد، وبدأ الملل يتسلل إليه فأخذ يبحث عنها فى أرجاء الحديقة، علها تكون قد غيرت مقعدها.. ولم يجد أمامه سوى أن يعود ويجلس على مقعدها.. فجأة انتبه على صوت عذب يقول:

ـ صباح الخير

نظر إلى صاحبة الصوت.. فتاة جميلة، عيناها خضروان.. تلعثمت الكلمات فى فمه وهو ينظر إليها مندهشاً وهى تبتسم قائلة:

ـ اعتقد أن هذا المقعد تعودت أن أجلس عليه

ابتسم قائلاً:

ـ وأنا أيضاً أعتقد أنه من حق أى إنسان أن يجلس عليه.. يمكنك أن تبحثى عن مكان آخر فقالت بجدية: أريد أن أعرف ما سر إصرارك على الجلوس فى هذا المقعد بالذات؟

نظر إليها باهتمام، وقد راوده هاجس.. ربما تكون هى نفسها.. نظر إليها بتمعن.. ابتسمت، وشردت عيناها بعيداً.. ابتسم قائلاً:

ـ أنت صاحبة البالطو والإيشارب والنظارة أليس كذلك؟

هزت رأسها.. وقف يحدق النظر فيها والسعادة تملأ قلبه.. ابتسمت.. ابتسم.. فجأة اندفعت الكلمات دون أن يدرى..

ـ منذ لحظات قليلة فقدت الأمل أن أراك..

نظرت إليه متعجبة وقالت:

ـ وهل تعرفنى؟

ـ أشعر أننى أعرفك منذ زمن بعيد.. أنت التى أبحث عنها فى أحلامى ضحكت.. والهواء يداعب شعرها الذى تطاير فأضفى جمالاً عليها.. وهو ينظر إليها مأخوذاً.. امتزجت النظرات وهى تقول:

ـ أحلامك! أنت لا تعرف سوى أنك رأيت فتاة ترتدى بالطو وإيشارب ونظارة.

فقال: يكفى أنك جميلة جداً وتخفين هذا الجمال.

ابتسمت وقد بدا عليها الارتباك والخجل وقالت بصوت خفيض وكأنها تهمس لنفسها:

ـ يكفى أنك انتظرت إنسانة تخفى معالمها.. وهذا ما لفت إنتباهى.. لماذا؟

ـ لأننى كنت أبحث عنك دون أن أعرف مظاهر جمالك، ولكن بعد أن اكتشفت معالمك ورأيت أجمل عيون تعتليها خصلات ذهبية تنسدل على وجهك، وسمعت عذوبة صوتك.. أصبحت مأخوذاً أكثر.

فقالت بسعادة:

- إنك لم تعرفنى جيداً، وأنا أيضًا ورغم ذلك فأنا سعيدة أنك كنت تبحث عن الإنسانة التى كانت ترتدى الإيشارب والبالطو والنظارة.. ولكن أنا كما ترانى الآن ليست هى.

قال فى لهفة:

- بل هى.. وهذا قدرى.. صدقينى لقد نبض قلبى قبل أن أحادثك أو أراك هكذا.

نظرت إليه فى سعادة وقالت:

- وأنا أيضاً لا أدرى ما الذى جذبنى إليك.. هل تعرف أن جمالى هو سبب شقائى.. الجميع ينظرون إلى هذا الجمال فقط ولا شئ أخر.

ذابت الكلمات بينهما، فاستسلما لحديث عيونهما بعد أن عرف أسمها (وفاء) وعرفت ان اسمه مخلص، وهو مهندس معمارى.. أما هو فلم يتردد لحظة أن يطلب منها الزواج، وان تظل معه إلى الأبد.. وتعاهدا على ذلك.

هناك على ضفاف النيل كانت وفاء تقيم فى (فيلا) فخمة مع أمها التى تمتلك ثروة هائلة .. عندما رأى مخلص الفيلا شعر باليأس والإحباط، فأخذ يحدثها عن نفسه وأسرته المتوسطة، ولكن وفاء أصرت على أن تعرفه بأمها.. التى أخذت تنظر إليه بتمعن.. أما هو فقد تسمر فى مكانه وعجز عن قول أى شىء

فقالت الأم:

ـ اسمع يا أستاذ .. وفاء هى ابنتى الوحيدة، وأنا قد كرست حياتى لها بعد وفاة أبيها.. وبدأت تتحدث عن الفوارق والطمع وأنها تريد لابنتها زوجاً يناسبها..

قال مخلص بهدوء:

ـ اعلمى يا سيدتى أن كل ما أملكه هو الحب والإخلاص لابنتك، أما الأشياء التى تتحدثين عنها لا تمثل أية أهمية بالنسبة لى.. لقد عرفت ابنتك قبل أن أعرف أهلها ووصفها وفوجئت بثرائها.. أما أنا فثرائى هو حبى لوفاء وحبها لى.. أرجوك لا تعكرى صفو قلبين جمعهما الحب.

نظرت الأم لابنتها التى بدأت تشرح لها ما حدث وتفهمها بأنه كان لا يعلم عنها أى شىء.. وبدأت الأم تتعرف على مخلص الذى يعمل فى مكتب للتصميمات الهندسية، وأنه يعيش وحيداً بعد وفاة أبيه وأمه..

أثناء كلامه أحس مخلص بالرضا وعلامات الارتياح على وجهها، فشعر بالبهجة والسرور وأخذت وفاء تشرح لأمها بأنه الشخص الذى كانت تبحث عنه.

لم تجد الأم شيئاً تقوله سوى أن توافق على زواج ابنتها، وبدأت دموع الفرح تسقط من عينيها، وعانقت وفاء و «مخلص».. وأخذوا يعدون للاحتفال بمراسم الزواج.

* * *



في المنزل جلس مخلص هائمًا لا يصدق الأحداث السريعة التى مرت عليه.. صار يتذكر لهفتها، وحمرة وجنتيها ورنين صوتها يدوى فى أذنيه (عد بسرعة).

عجيب أيها القدر، فى أقل من أسبوع يرى ويسمع ويتكلم مع الحبيبة التى طال انتظارها.. فجأة دق جرس الباب ودخل صديقاه مؤنس وعزيز وهما يحملان باقات الورود فقد جاءا ليصطحباه إلى العروسة.. أما هو فقد شعر بأنه قد نسى شيئًا.. وانطلقوا جميعًا إلى مكان اللقاء (حديقة الأحلام).

وهناك تذكر مخلص (الشبكة) فهو قد نسى تمامًا شراءها.. فظل شريداً وسط الأغاريد.. تحرك موكب العروس، كانت وفاء ترتدى الثوب الأبيض المزركش.. بدت فيه كالملائكة.. خشع قلبه لجمالها.. جالسًا كان بجانبها فى العربة المخصصة لهما وسط (زفة) هائلة إلى نعيم الأحلام والسعادة.

أحس مخلص أنهما طائران يسبحان فى سموات الله، حتى هبطا إلى مكان الاحتفال.. كانت الأم تنتظر وسط (التورتات والزينة) وبعض المدعويين.. كانت شاردة .. يبدو أنها كانت تسترجع أحلامها!

جلس مخلص ووفاء، وبدأت الموسيقى تعزف والزغاريد تملأ المكان، ومازال مخلص شارداً قلقاً.. أحست وفاء ذلك فقالت:

- أنا أسعد مخلوقة اليوم.. ولكن هناك ما يشغل تفكيرى هو حيرتك وقلقك.

* همس مخلص:

- آه لو تعرفين ياغاية الروح ما مدى خجلى الآن؟

- ماذا؟

- كنت متعجلاً فنسيت أهم شيء.. هدية عرسك. هذا ما يجعلنى قلقاً.

* ابتسمت وفاء وقالت:

- أرجوك لا داعى أن تشغل تفكيرك فى مثل هذه اللحظة، لقد مر الوقت سريعاً. هذه مسألة شكلية، أعتقد أن ما جمعنا هو تلك المفاجأة التى شملت قلبينا وضمت روحينا بعيداً عن متنزهات الشكل. إن كل ما يهمنى يا حبيبى هو أنت فقط بعيداً عن ماذا قدمت لى.. أتعرف؟ أشعر الآن أننى أسعد مخلوقة.

* صمت مخلص لحظة ثم نظر إليها وقال:

- لكن.. أرأيت جميع من يحضرون هنا ينظرون إلينا وكأنهم ينتظرون تقديم (الشبكة) ولابد...

* قاطعته وفاء ووضعت يدها على فمه..

- أرجوك ..

في هذه اللحظة كانت الأم تقف بجوارهما وقد أشارت للحاضرين أن يستمعوا إليها، نادت إحدى زميلات وفاء لتوقف الموسيقى، التفت حولها وحول مخلص ووفاء الزميلات والأصدقاء... فتحت صندوق فخم وأخرجت منه بعض الحلى..

* قالت الأم وهى تنظر إلى وفاء:

- هدية الأستاذ مخلص لأبنتى وفاء... ألف مبروك يا أبنائى.

أخذت تقبل وفاء ومخلص، دوت الزغاريد وارتفع صوت الموسيقى...

نظر الحاضرون إلى هدية العرس وأخذوا يهنئون العروس..

* قالت أحداهن:

- (اوه فانتستيك)

- (اوريجينال) رائعة.

* بدأت الأصوات تتداخل ..

- ألف مبروك يا وفاء... يا مخلص..

داهم مخلص إحساس بعجز لسانه عن الكلام، نظر لوفاء، حاول أن يسألها وهى تنظر إليه تداعبه بعينيها وتبتسم، أخذت تحثه على أن يخرج الحلى من الصندوق، وقفت الأم تنظر إليهما ودموع الفرح تترقرق فى جفنيها.. اخرج مخلص (خاتم) محلى ببعض الأحجار

المتلألئة وسلسلة منقوش عليها آية قرآنية، راحت وفاء تلبسهما وسط زغاريد الحاضرين، ارتفع صوت الموسيقى ووقف العروسان لتقطيع (التورتات) الخاصة بالحفل وسط تهليل الحاضرين، تناول مخلص ووفاء قطعة من الحلوى معًا، لم ينس مخلص أن يقدم إلى أمها التى كانت تقف شاردة قطعة من الحلوى.... وأخذ يرقص مع حوريته وسط المدعويين.

* قال بصوت خفيض:

- فى الوقت الذى تحدثنا فيه عن هدية العرس كانت أمك تبادلنا نفس التفكير، قد أنقذتنى من ورطة مؤكدة... أنها إنسانة عظيمة، قد لاحظت فى عينيها دموعاً ساخنة وأنا اقلدك السلسلة.

- أتعرف لماذا؟ لأنك اخترت شيء تعتز هى به.

كان مخلص ووفاء يتمايلان مع أنغام الموسيقى، تتراقص الفرحة حولهما... كانت نظرات المدعويين مصوبة نحوهما، أحس مخلص أن عزيز ومؤنس واقفان منزويان ومنهمكان فى الحديث ... استأذن مخلص من عروسه وأتجه صوبهما قاطعًا حديثهما، نظر مؤنس إليه وقال:

- ألف مبروك يا عريس... معك عروس حورية من الحوريات.

ضحك مخلص وسألهم:

- لابد أنكما تريدان أن تتزوجا ثانية؟

قال عزيز:

ـ أبداً فقط نتحدث عن بعض الأعمال المؤجلة.

قال مخلص ضاحكاً:

ـ أعمال !! حتى فى هذا اليوم يا عزيز.

ضحك الجميع وبدأوا ويتحدثون عن مظاهر السعادة التى سيجدها مخلص مع زوجته، التفت مخلص إلى وفاء وجدها واقفة تتحدث مع شخص لم يعرفه، أسرع إليها وهى ترقب قدومه وما أن أتى إليها.. وقفت صامتة، بينما مخلص افتعل ابتسامة وقال:

ـ أهلاً وسهلاً يا أستاذ....

أجاب بصوت واجف:

ـ رأفت.

قالت وفاء مكملة:

ـ الأستاذ رأفت ابن خالتى.

ـ مبروك يا أستاذ مخلص.. مبروك يا وفاء.

راح رأفت يقف مع زملائه وأخذوا يقهقهون، كان يوجد بينهم شاب يحدق بالنظر إليها... استرعى انتباه مخلص نظرات هذا الشاب..

سأل وفاء مشيراً بيده.

ـ هل تعرفين هذا الشاب؟

ـ نعم.. إنه الأستاذ صبرى، كان دائماً يحاول التقرب إلى وقد عرض على الزواج.

قال مخلص مقاطعاً:

ـ نعم.. ولكن..

قاطعته وفاء:

ـ أرجوك يا مخلص.. قد اخترتك أنت قبل أن أعرفك، وأنت كذلك.. ألا يكفينى أننى اخترتك لتكون حبيبى وصديقى وأخى وزوجى وكل ما أملك فى الوجود. عندما رأيتك أحسست أننى وجدت ذاتى وكيانى.. وجدت روحى التى أغلقت عليها كل معانى السعادة... أننى معك بكل كيانى ووجدانى.. أعرف أن وجود بعض الزملاء هنا ونظراتهم تشغل تفكيرك.. وأعرف أن حبك لى يفوق كل شىء ـ لا تقلق يا حبيبى فقد اسلمتك قلبى ... أتفهم؟!

ـ أفهم يا حبيبتى أننا نسير معاً نحو عالمنا، هذا العالم الذى يملك كل الحب والعطاء.

* انتبها على بعض أصوات ممن يهمون بالخروج..

ـ ألف مبروك يا وفاء.

ـ ألف مبروك يا مخلص..

وقف عزيز ومؤنس يتلقيان تهنئة المدعويين أثناء خروجهم، بينما راح مخلص يعانقهما وقد أحس بأنهما ليس صديقيه فقط بل وأهله أيضًا، خلت (الفيلا) من المدعويين وقد أغلقت الأم الباب وأسرعت لتضمها إلى صدرها وتعانقهما ثم قالت:

ـ ألف مبروك يا أبنائى.. مخلص.. أوصيك أن تهتم بوفاء فهى كل ما أملك، كل ما يهمنى هو أن تحافظا على سعادتكما وعلى الحب الذى جمعكما.. أتعرف يا بنى؟

عشت طوال حياتى أنتظر اللحظة التى تتزوج فيها وفاء من إنسان يطمئن إليه قلبى والحمدلله وجدت الإنسان المناسب.. أرجو أن تحافظ عليها فهى كل ما بقى لى من ذكرى أبيها العطرة.

قالت وفاء وهى تقبل يدها:

ـ لن أتركك أبداً يا أعز وأجمل ماما فى الدنيا.

أكملت الأم حديثها:

ـ مخلص.. أود أن تبقيا معى فى (الفيلا)

لأننى كما تعرف أصبحت الآن أعيش بمفردى !!

قاطعتها وفاء:

ـ لا أستطيع أن أتركك يا ماما..

ـ فقال مخلص بجدية.

ـ فعلا سوف نأتى إليك دائما، لكن أفضل أن نبدأ معًا من البداية، أعرف أن منزلى محدود وبسيط، وقد لا تعتاده وفاء مثلما اعتادت منزلها ولكن تأكدى أننى سوف أوفر لها كل متطلباتها ولن ينقصها شىء..

قالت الأم بصوت شجىّ:

ـ نعم.. أنت ستوفر لوفاء كل شيء... وأنا سينقصني كل شيء !

راحت وفاء تقبلها وتعانقها وقالت :

ـ يا حبيبتى يا ماما.. لا أستطيع أن أفارقك... أرجوك يا مخلص.. لا يجب أن نتركها بمفردها.. من الممكن أن نقيم ونبدأ حياتنا هنا !

تركت الأم وفاء ومخلص يتحدثان وراحت تلملم (التورتات) والحلويات وهى تجفف دموعها بينما وفاء كانت تتحدث عن المستقبل والحياة والمعيشة وتقنع مخلص بمعاناة أمها التى ستجدها فى وحدتها القاتلة.

كان يساور تفكيره أنه لا يستطيع الاعتماد على الغير ولابد أن يعتمد على مجهوده، شعر بحيرة.. تارة يريد أن يبقى (بالفيلا) وأخرى يريد أن يعيش معتمداً على إمكاناته .. كان يعرف جيداً أن هذه المعيشة الثرية تتطلب أشياء كثيرة تفوق إمكاناته وقد أنتبه على كلمات وفاء التى تدوى فى أذنيه..

ـ مخلص. ما رأيك؟

ـ ماذا؟ نعم.. أننى بالفعل أحس إنه لا يجب أن نتركها وحيدة فأنا أعرف الوحدة جيداً، ارتسمت الفرحة على وجه وفاء فقالت:

ـ أتعرف يا حبيبى.. طوال عمرى لم أشعر بمثل هذا الإحساس وأنا بين يديك... أحس أن العالم كله ملكى...

ظلت تتحدث عن السعادة والنعيم والحياة الهادئة وتتمنى أطفالاً يملئون الحياة بهجة وسروراً.بدأ مخلص يتحدث عن المستقبل وأنه

سوف يجعل العالم كله بين يديها.. فجأة تذكر أن حديثهما طال وأنهما في ليلة عرسهما..

* همس قائلاً:

- أليس غريباً أن ننظم حياتنا الآن ؟!!

ابتسمت وفاء وقالت بدلال:

- أتعرف؟ أجمل ما في الحياة.. أن تلتقي روحانا.. وأسوأ ما فيها أن يتدخل العقل فيفسد الإحساس الواحد فيها.

- دائمًا تأخذين الكلمة من فمي.. الناس عادة ينظمون حياتهم قبل زواجهم بعد أن يكونوا قد عرفوا بعضهم جيداً.. ونحن نتكلم عن حياتنا بعد أن تزوجنا.. ومتى؟

الآن في ليلة عرسنا !!

- المهم... يجمعنا الآن منزل واحد ....!

قال مخلص مقاطعاً:

- قد نسيت.. اسمعي يا وفاء.. سوف نقضي فترة قليلة هنا ثم ننتقل بعد ذلك إلى منزلي.... أعدك أننا سنخرج من هنا دون أن تشعر الأم بأي نقص يشعرها بالوحدة... وسوف نزورها كثيراً ما رأيك يا حبيبتي؟

صمتت وفاء للحظات ثم أومأت برأسها موافقة وقد عرفت الأم أنهما سيبقيان معها.. حاولت أن تتركهما بمفردهما وقبل أن تنصرف

أوقفها مخلص وقال:

ـ لابد أن أشكرك على التصرف النبيل والمعروف الذى قدمته إلى.

وهو ينظر إلى هدية الفرح فقالت الأم:

ـ أرجوك يا مخلص لا تكمل.. هذه هديتى لك ولوفاء.. وقد أخترت أنت أهم ما أملك وأعطيتها أيضاً لأعز مالى فى الوجود.. لأبنتى...

أنتما لا تعرفان يا أبنائى مقدار فرحتى التى شعرت بها عندما أخترتها.. أرجوك أقبلها وبإمكانك أن تشترى أى هدية آخرى لوفاء دون أن ترد هديتى.. ألف مبروك.. طابت ليلتكما... تصبحا على عسل !!

وراحت إلى غرفتها بينما الابتسامة على وجهها، أمسك مخلص وفاء وحملها بين ذراعيه صاعداً إلى الطابق العلوى ووفاء تداعبه بإبتسامات جميلة وتشير إلى غرفة عرسهما.. حتى دخلا غرفة أحلامها ووضع مخلص حبيبته على بساطهما الوردى فى ظل السعادة والحب والأحلام.

* * * * * *



مرت الأيام والسعادة تغمر المنزل، والحب تاج يكللهما.. ذات صباح استيقظ مخلص على أيد تتلمس وجهه وشعره.. فتح عينيه وجد أجمل عيون تجلس بجواره تداعبه بابتساماتها الظريفة..

ـ صباح الخير يا ملاكى الجميل.

ـ صباح الياسمين يا أجمل حورية سكنتنى.

أخذت تفتح النافذة وهى تقول:

ـ هيا.. لقد أعددت لك الفطور.

وقف مخلص وهو يتمطى نافضاً آثار النوم، قال:

ـ يبدو أننى نمت طويلاً.. أين الأم الجميلة؟

ـ كعادتها.. تجلس فى حديقة المنزل.

ـ إذن سوف نتناول فطورنا فى حديقة المنزل.

راح يعدل من هيئته، أعدت وفاء الأفطار وجلست تنتظر بجوار أمها وبدأت تنادى على مخلص الذى أتى إليها مسرعاً...

ـ لبيك يا حوريتى الصغيرة.. صباح الخير يا أمى العزيزة.

ـ صباح الخير يا بنى.

أخذ مخلص ووفاء يتناولان أفطارهما بين أحضان الطبيعة حيث الشمس الذهبية والزهور اليانعة .. كانت الأم تتأملهما والأبتسامة لاتفارق وجهها، وهى تعد أقداح الشاى لهما، راح تفكيرها يستعيد ذكريات شبابها.. قالت بسعادة:

ـ ظللت أفطر فى هذه الحديقة خمسة وثلاثين عامًا.. كان والدك يجلس بجوارى ويطعمنى مثلما تفعلان الآن.. لقد أعدتما البهجة ثانية لهذا المكان.

قالت وفاء مداعبة أمها وهى تناول مخلص قدح الشاى..

ـ بدأت أقلق.. صار مخلص يقضى معظم أوقاته معك، وهو الذى اقترح أن نجلس معك هنا.

ضحك الجميع ثم قالت الأم بإعجاب:

ـ يبدو أنكما تفكران بطريقة واحدة.. وهذا أجمل ما فى الحياة.

ـ لابد أن نسهر اليوم فى مكان لنتناول العشاء..

ـ أنا لست قادرة على السهر يا أبنائى .

ـ لابد أن تأتى معنا.. تعال وعندما ترغبين فى النوم سننصرف.

أخشى أن أفسد عليكما الوقت.

قال مخلص مداعباً:

ـ ما أجمل أن يكون الوقت معك يا أجمل أم.. لابد أن تأتى معنا.

وافقت أن تذهب معهما.. أخذ مخلص يحدث وفاء فى حنان وحب وهما يتنسمان عبير الورود المطلة عليهما، فجأة انتبها على صوت الأم..

ـ (تليفون) يا مخلص.

راح مخلص مسرعاً، رفع سماعة (التليفون)

صباح الخير ـ أهلاً يا عزيز، بارك الله فيك ـ طبعا ـ لا أستيقظت مبكراً.. قل لى ما أخبار مؤنس؟ بجوارك! ... أهلاً يا مؤنس .. شكرا .. الله يسلمك.. نعم .. مع السلامة.

فى هذه الأثناء فتحت وفاءصندوق البريد، وقد أخرجت منه برقيات كثيرة وصعدت إلى مخلص وجلست بجواره تقرأ باسماء مرسليها، وأيضاً راح مخلص يقرأ برقيات من أصدقائه، أثناء قراءتها وجد مخلص برقية جعلته يرتاب.. كانت تتضمن...

(الف مبروك يا عروسة.. اتمنى أن تكون سعيدة بزواجك هذا يا وفاء..)

نظر مستفسراً ثم قال مندفعاً:

ـ من صاحب هذه البرقية؟

أخذت البرقية ونظرت فيها وهى لاتبدى اهتماماً لها وقد نظرت لمخلص الذى نظر إليها محاولاً أن يعرف شيئاً.

ـ لم يذكر أسمه ... يبدو أنها من واحد ثقيل الظل.. هل أزعجتك هذه

البرقية؟

ـ اطلاقاً.. ولكن يبدو فعلاً أنه عديم الأخلاق!

وفى المساء.. تهيئا للخروج وأخذا معهما الأم وقد اختارت وفاء مكاناً اعتادت الجلوس فيه ، وقبل أن يصلوا أوقف مخلص السيارة ودخل (محلا لبيع المجوهرات) ثم عاد إليها مسرعاً.. بدت وفاء بفستانها أجمل فتاة تذوب الطبيعة فى محاسنها، جلسوا فى مكان يطل على النيل، تصاحبه موسيقى هادئة، وما أن جلسوا أخرج مخلص هدية وفتحها، وجدت وفاء بعض الحلى وأخذ مخلص يقلدها إياها!!

قالت وفاء بسعادة:

ـ ذوقك جميل جداً يا حبيبى.. انظرى يا ماما.

ـ انت تعرفين جيداً يا حوريتى أن زواجنا تم بسرعة.. فلم أستطع أن أقدم لك شيئاً.

ـ عنيد.. لقد حققت ما ترغبه.. لم يكن هناك داعياً أن تكلف نفسك.

ـ كيف تقولين هذا؟ إن هدية العرس أمنية كل فتاة.. هذا أقل شىء أستطيع أن أعبر به تجاه إنسانة جميلة أحببتها بكل جوارحى ووجدانى.

أثناء حديثهم سمعوا صوت يدوى فى القاعة (ألف مبروك للعروسين) . بدأت الموسيقى تعزف أنغام (زفة) العروسة.. التفت مخلص حوله لم يجد أى عروس.. أحتار فكره تحولت الموسيقى ثانية إلى موسيقى هادئة.. أشارت وفاء إليه وهى تداعبة بعينيها، وقف

مخلص .. راح يرقصان.. لم تبرح عيناه الجميلتين ونسمات العبير التى تتأتى منها.

خفتت أصوات الموسيقى وبدأ مخلص يسمع نبضات قلبها الذى يصدر إيقاعات موسيقية، ظلت عيناه سابحتان فى عينيها الحالمتين حتى أنه شعر أن صوت الموسيقى اختفى تماماً وقد كان يرقص على صوت نبضات قلبها.

كانت الأم تمعن النظر فيهما .. راحت وفاء تميل برأسها على كتف مخلص وتغمض عينيها.

* قال مخلص بهدوء:

ـ شيء غريب أن تعزف فرقة الموسيقى عند مجيئنا ورحبت بنا دون أن يعرفنا أحد هنا.

* أنتبهت وفاء وقالت:

ـ لا ... هنالك من يعرف بزواجنا.

ـ من؟

وجهت نظرها تجاه شخص يجلس مع آخرين وقالت:

ـ انظر .. هل ترى هذا الشاب الذى يرتدى زياً داكناً؟

التفت مخلص وقد لمحه ينظر إليهما..

ـ نعم!

قالت وفاء بسخرية:

ـ الأستاذ جابر أوكما يدعونه (جوجوبك) يقيم فى نفس شارعنا، أؤكد أنه هو الذى أبلغ الفرقة الموسيقية لترحب بنا!!

ـ لكن أليس غريباً أنه لم يأت ليرحب بنا!..

قاطعته وفاء قائلة:

اسمع يا مخلص.. لقد عهدت فى الصراحة والصدق وأنت لم تعرف على كل شيء، لا أريد أن أتحدث عما مضى ولكن.. سأطمئن قلبك، هذا الشاب منذ فترة قريبة أراد أن يتقدم إلى...

ـ يبدو أنه ثرى جداً.

أكملت وفاء:

ـ لكننى رفضت.

قال مخلص:

ـ أيضاً وسيم.

ضحكت وفاء بسخرية وقد أرتفع صوتها...

ـ هؤلاء الشباب ينظرون دائماً إلى الجمال فقط!.. وهناك أشياء كثيرة لايهتمون بها أبداً .. مثل الحب، التفاهم، القيم، المبادئ.. كل اهتمامتهم أن يشغلوا فراغهم بالهزل وامتلاك الرغبة.

أتعرف يا حبيبى؟ أحياناً الوسامة والثراء تخدع الكثير ، لكن عندما تنظر لجوهرهما وتتعمق فيهما تجد أنها أمور زائفة.. أنظر.. هل ترى هذه الفتاة التى ترقص معه؟

ـ نعم

ـ هى الآن مبهورة بثرائه ووسامته وأناقته.. وهو أستاذ فى إقناع الغير، أتعرف معظم من قابلتهم.. كانوا يحبون جمالى ومحاسنى وما أن يقام نقاش بيننا أجد كل شىء سراباً.. هذا الشاب مثلا يعتقد أن الحياة متعة فقط، هذا هو شعاره...

ذات يوم حاول أن يتحدث معى وكرر محاولاته إلى أن اعتقدت أنه يكن لى مشاعر صادقة نبيلة وعندما أقتربت منه تكشفت لى حقيقته الجوفاء، يريد فقط أن يلهو وراء ستار المشاعر النبيلة وهنالك كثيرين من أمثال هذا.

تعبت من الحياة وتعبت من جمالى الذى سبب لى المتاعب.. لا أحد ينظر لذاتى.. يخاطب عقلى، يشغل وجدانى.. لا أحد.

قررت أن أخفى جمالى، أن أطمس تفكيرى ووجدانى.. اعتقد الجميع أننى اختفيت . عرفت بعد ذلك أن مظهرى وجمالى هما سببا. نقمتى! ظللت أتخفى وراء نظارتى حتى رأيتنى أنت... ووجدتك، كل ما تمنيته.. انسانًا جميلاً ووسيمًا.. عرفنى بعيداً عن أى شىء يلفت نظره تجاهى، إنساناً يفكر بنفس طريقتى. عوضنى الله خيراً وأعاد إلى قلبى بهجته.. إنساناً أقف الآن بين يديه أشعر وكأن العالم كله بين يدى الآن.

أحس مخلص أن الدموع قد تعلقت فى عينيها وأنه أعاد لها شقاءها وإحساسها بالأيام التى ضاعت منها دون جدوى، ضمها إلى صدره أكثر وأخذ يتلمس كتفها ونظر إليها وقال:

ـ عظيمة.. اعذرينى ياملاكى الرقيق.. قد بحثت عنك كثيراً حتى رزقنى الله بك.. وكان سؤالى دافعه حبى لك.. وها أنت تفكرين بنفس طريقتى، أعتقد أن كلينا وجه واحد لعملة واحدة.

أراد مخلص أن يعبر عما بداخله قال:

ـ ما أجمل هذه الموسيقى.

ـ حقا أنها رائعة.

ابتسم مخلص وقال بصوت عذب:

ـ أتحدث عن الموسيقى التى تصدر من نبضات قلبك.. !!

قالت وفاء بسعادة وهى تمعن النظر فيه:

ـ بل أنا التى أتحدث عن أجمل وأروع إيقاعات يصدرها قلبك..!!!

ذابت الكلمات بينهما وقد أنتبها لما يحدث حولهما، وجدا الآخرين يرقصون حولهما بحركات سريعة تتماشى مع الموسيقى العنيفة التى كانت تعزف آنذاك ، تبادلا الضحك ثم عادا ليجلسا على مائدتهما فوجدا الأم قد بدا عليها النعاس، طلب مخلص أن يذهبوا.. راحت وفاء تقود سيارتها الفخمة.. بينما جلس مخلص بجانبها والأم قد أومأت برأسها إلى الأمام وقالت:

ـ سهرة جميلة.. منذ وقت طويل لم أعتد السهر.. أشكركما على قضاء هذا الوقت الطيب الممتع، وظلت تتحدث عن السعادة التى وجدتها، وذكرياتها مع زوجها حتى وصلوا المنزل، ودخلت حجرتها وهى تقول بصوت ناعس:

ـ طابت ليلتكما.

وما أن مشت ، القت وفاء نفسها على يدى مخلص كالعادة .. حملها ودخلا غرفة أحلامهما الجميلة وألقاها على بساطهما الوردى وأخذت وفاء تخلع رداءها.. قالت بهمس:

ـ كم أنا سعيدة جداً وتزداد هذه السعادة عندما نكون وحدنا.

ـ نحن لسنا وحدنا يا حبيبتى.. انظرى.. هنالك الجدران، النوافذ، الستائر.. آه.. كم تمنيت أن نصبح وحدنا.

فى هذه الأثناء فتحت وفاء (دولاب ملابسها) لتضع الاشياء ، وجد مخلص ملابس كثيرة أشكال وألوان مختلفة (فوريرات فخمة) قال مكملاً وقد غير الحديث..

ـ اسمعى يا وفاء.. طبعًا أنت تعلمين أننى أعمل فى مجال الهندسة المعمارية.. وتعرفين أيضًا أن دخلى حتى الآن محدود.. وأنت قد أعتدت ارتداء الملابس الفخمة.. وتعرفين جيداً أن كنوز العالم إذا كانت فى حوزتى لوضعتها تحت قدميك . قد ترددت كثيراً أن أتحدث معك فى هذه الأمور، أريد أن أجعلك أسعد مخلوقة فى الكون.. ولكن !!..

قالت وفاء مقاطعة:

ـ تتحدث عن الثراء!! آه لو تعلم .. إن الثراء هو الذى أحسسته ونعمت به منذ أن عرفتك .. ثرائى يا زوجى الحبيب هو أنت ، الحب والمشاعر النبيلة الجياشة والأحاسيس الصادقة. يكفينى هذا الكنز الذى يفيض حباً وحناناً.. روحًا صادقة أسكنت فيها وأسكنتنى.. يكفينى أنك أعدت لى ثرائى.. الحياة!

كنت أبدو بملابس عادية وتيقن إحساسى أنك تبحث عنى أنا وليس شكلى أو مظهرى أو هذا الذى تسميه ثراء.. حينما خلعت الذى رأيتنى به.. رأيت شكلا آخر.. أتذكر ماذا قلت فى ذلك الوقت؟!

أجاب مخلص:

ـ أذكر .. قلت هذا قدرى.. قد منحنى الله حورية ذات عيون جميلة.

ـ وما الفارق الآن؟ إننى أيضًا ثرية.. هل يريحك أن أفنى هذه الثروة الآن!

ـ بالطبع لا، !!

عادت وفاء تتحدث إليه بدلال قائلة:

ـ إذن أرجوك لاتتحدث فى هذا الموضوع ثانية، لأننا نحس بشىء واحد سوياً بعيداً عن أية مسائل شكلية.

اقتربت منه ووضع مخلص يديه على وجنتيها.. ارتمت وفاء بين أحضانه حتى ذابت الكلمات بينهما.

عاش مخلص سعادة هائلة بين حبيبته وفاء وأمها الحنون التى كانت ترى فيها شبابها وأحلامها .. كانت من وقت لآخر تخرج معهما للتنزه فى الأماكن الجميلة حيث السهرات الممتعة والليالى الصاخبة.. تغلغل منزل الأمانى فى أعماق مخلص وكان يزداد قوة وحياة وأملا يومًا تلو الآخر، يشعر بنسمات حبيبته وفاء التى تتطاير عبر السماء هائمة تملأ العالم عبيراً.. تلك السعادة التى كان يبحث عنها منذ طفولته.

* * *

٤

عاد مخلص إلى عمله، وسرعان ما طلب من وفاء أن يعود إلى المنزل الذى أعده لها، وأخذا يفكران كيف تواجه الأم وحدتها؟ بالتدريج بدأت الأم تعتاد عدم تواجدهما، طلب مخلص منها أن تعيش معهما ولكنها رفضت وأصرت أن تعيش فى منزلها التى قضت فيه عمرها وأخذت تروى لهما عن كفاح زوجها وبناء هذا المنزل.. والزهور التى تنمو فى حديقته وأصبحت كالسمكة لاتستطيع أن تخرج من الماء!!

مرت الأيام وبدأ مخلص ينفذ تصميماً هندسياً قد أعلنت عنه مؤسسة حكومية، فقدم عدة اقتراحات تفيد التصميم فى حالة التنفيذ.

كان يعود من عمله متعباً وكانت تستقبله زوجته الجميلة بشوق بالغ... حقاً أنها حورية من الحوريات الجميلات اللواتى نعرفهن فى الأحلام.. سبحانك يارب العالمين! إنك أعظم مصور قادر على رسم هذه اللوحة فى أجمل صورة تتمثل فى شخص وفاء.

ذات يوم عاد مخلص من عمله والفرحة تملأ عينيه، أخذ يداعب زوجته التى تنتظره كعادتها برقتها الفائقة ودلالها الساحر قالت بسعادة:

ـ يبدو أنك حققت شيئاً اليوم جعلك سعيداً.

ـ شيء من هذا القبيل!! مـا رأيك يا حبـيبتـى أن نخرج بعد قليل إلى أجمل مكان فى العالم.

ـ أجمل مكان؟ أجمل .. أجمل من منزلنا؟!!

* قال مخلص مداعباً:

ـ نعم.. مكان تلتقى فيـه العيـون الجمـيلة وتتناغم فيـه القلوب... أنه مكان.... وضعت وفاء يدها على فمه وأخذت تعانقة وحدقت فيه بعينيها الجميلتين اللتين كلما نظر فيهما سبح هائماً فى عالم لاحدود له من السعادة والحب والحنان، وداعبته بأصابعها المرمرية وبصوت رقيق قالت مكملة:

ـ مكان تلتقى فيه العصافير وتطل فيه الأشجار المتمايلة على بعضها.. مكان ترسل فيـه العيون شحنات من الحب والحنان القادم من أعماق القلب وتستقبله عيون أخرى تتصل بمثل هذه الموجات الروحانية.

بل مكان يجمع العشق الذى يمتد إلى كل خلايا الوجـدان ويتغلغل فى وجـدان المحب.. مكان أسكننى قـبل أن أسكنه ، وأسكنتـه قـبل أن يسكننى .. التقيت فيـه بأجـمل وأوسم رجل فاضت أحـاسيسه فى كل جزء من كيانى.

أقترب مخلص منها وأخذ يقبلها قبلة حارة وقال:

ـ أريد أن أحـتـفل بك احـتـفالاً عظيـمًا لأجل هذه المفاجـأة العظيـمة .. يجب أن نذهب الآن. قالت وفاء مقاطعة..

مفاجأة!!

ـ أننى أتلهف بشوق بالغ أن أعرف كل مابداخلك وما يجرى فى عقلك!!
أريد أن أعرف كل نبضة وكل همسة تخطر فى بالك.. عندما سمعت صوتك لأول مرةٍ فى الحديقة وأنت تقول (صباح الخير) .. ملأت أذنى عذوبة، كانت أجمل «صباح الخير» سمعتها فى حياتى.

عرفت أن (فينوس) قد صوبت سهامها وعندما تغيبت لم يفارقنى صوتك وصورتك... اختبرت عواطفى وعندما تأكدت أنك مازلت تنتظر فى نفس المكان أعلنت جمالى إليك وقد أدركت فى ذلك الوقت أن الجمال لايعنيك قدر اعتزازك بالإنسانة التى كانت تجلس على المقعد الذى كنت تجلس عليه... ازداد ولعى بك .لأنك طراز نادر من الرجال !! لحظتها عرفت كل ما يدور بداخلك..

* قال مخلص مكملاً:

ـ وعرفت أنا أيضاً أنك عملة نادرة من النساء.. هاأنت قد استرسلت فى حديثك وقد مضى الوقت... لافائدة.. أمرى إلى الله سأقول لك...

* قالت وفاء برقة بالغة وهى تقترب منه..

ـ انتظر.

قامت وجلست بجانبه بينما أشعل سيجارة وابتسم مكملاً:

ـ علمت اليوم من بعض الأصدقاء أن التصميم الذى اشتركت به قد نال الجائزة.

ـ ألف مبروك يا حبيبى.

ـ الأهم من ذلك أن رئيس لجنة المشروعات قد وافق على الاقتراحات التى قدمتها إليهم .. أتعرفين هذه الاقتراحات ستحل أزمة سكانية واقتصادية.

أنا سعيدة جداً لسماع هذه النبأ .. أقصد المفاجأة!

ضحك مخلص وضمها إليه وقد أحس فى هذه اللحظة أنه لن تكون بينهما أية مفاجآت فكلاهما يود أن يعرف كل شىء أسرع من نبضة الوريد.. نظر إليها متأملا عينها الملونة الجميلة، أطلق لتفكيره العنان.. فجأة تذكر شيئاً فأخذ يضحك.. نظرت إليه وفاء بدهشة وقالت:

ـ ماالذى يضحكك؟

ـ أتذكر عندما كنا فى منزل أمك وأنا أحملك دائماً على ذراعى وأصعد بك للغرفة العلوية.

* قالت وفاء بتهكم:

ـ وهل فى هذا مايضحكك؟

ـ كلا.. هنا... لاتوجد غرفة علوية!

ضحكت وهى تداعب يديه، بينما نظر إليها وقال:

ـ لكن هذا لايمنعنى أيضًا أن أحملك على ذراعى وأعانقك .. لأننى حقاً أشعر بإحساس لامثيل له.

حمل وفاء معانقاً لها والضحكات الرقيقة تتطاير منها وهى تداعب عينيه الهائمتين.

* * *

٥

حان وقت الإعلان عن المسابقة وقد أعلنت رسمياً بفوز مخلص بجائزة أحسن تصميم... وقف الزملاء والأصدقاء وبعض مديرو الشركات ورجال الأعمال يهنئونه، راح مخلص ينسحب بهدوء وسط هذا الجمع وذهب إلى منزله.. وجد وفاء تنتظره بشوق بالغ.. كانت ترتدى ثوباً فخماً ويبدو عليها السعادة!!

قالت بصوت خفيض:

ـ لقد عدت قبل موعدك رغم أننى أنتظرتك.

ـ أخيراً أعلن رسمياً بتسليمى أحسن جائزة.. ما رأيك أن نخرج الآن؟

أومأت بالإيجاب فأخذ يعانقها ويتنسم العطر الذى يتطاير منها، قبل أن يخرجا أمسك يديها وقال:

ـ تبدين جميلة فى هذا الثوب الرائع وهذا العطر الجميل.. إننى أراك يوماً بعد يوم تزدادين جمالاً.

ـ أتعرف لماذا؟ لأن كلماتك الرقيقة هذه تحاصرني دائماً فتجعلني أكثر جمالاً.

اقترب مخلص منها، أخذ يقبلها بينما هي وضعت رأسها على كتفه ثم خرجا وذهبا إلى حديقة الأحلام. المكان الذي جمعهما، نظر إلى مقعدهما.. كان يوجد عليه اثنان آخران... أخذا ـ يتمشيان وسط الزهور يتذكران الأوقات السعيدة وما أن خلا المقعد، أسرعا إليه ليجلسا، طلب منها أن تغمض عينيها.. أخرج من جعبته سلسلة ذهبية ذات قلب، كان قد أوصى بها... وضعها حول جيدها.. أرادت وفاء أن تفتح عينيها ولكنه طلب منها أن تظل هكذا لكي يتأمل حوريته ذات الوجه الملائكي، فتحت عينيها وأخذت تنظر إليها وتتأملها..

* قالت بصوت فرح:

ـ الله.. ما أجملها.. شكراً يا حبيبي.. لم أر مثل هذه الروعة والرقة المتناهية لذوقك الرفيع.

ثم طلب منها أن تفتح القلب الصغير المعلق في السلسلة.. فتحتها فسمعت نغماً موسيقياً رائعاً وحروف اسميهما منقوشة على جدار القلب الذهبي.

ـ كم هي جميلة جداً... يبدو أنك أنفقت كثيراً حتى بدت بهذا الجمال.

قال مخلص بصوت دافئ:

ـ لو أملك كنوز العالم لقدمتها إليك دفعة واحدة .. إنك أعظم جوهرة تنير حياتى.

ارتسمت على وجهها الابتسامة، وبدأت تتحدث عن السعادة التى وجدتها منذ أن تزوجته، راح تفكير مخلص بعيداً يندب الأيام التى مرت عليه قبل أن يراها فهى تمتلك كما كبيراً من السعادة، وبحوراً من الحنان تروى ظمأه، وراح يتخيل جنته الوارفة من الحب والحنان تحتويه مدينة كبيرة من السعادة تبنى فى داخله... انتبه على إشارات تلوح أمامه من يد وفاء ونسمات عاطرة تخرج من شفتيها تداعب وجهه، ابتسمت وفاء وقالت:

ـ فى أى شىء تفكر؟

ـ فى أرق زوجة وأجمل عيون فى العالم.

ـ حتى وأنا بجوارك؟

ـ نعم وأنت بجوارى.

استغرقت وفاء فى تأمل كلماته، راحت عيون مخلص بعيداً عن هذا العالم الذى يعيشه الآن، شعر بأنه لابد أن يفصح عما بداخله.. عن البقية الباقية من عالمه الذى كان!.. السعادة والحب والعالم الوردى الذى يعيشه الآن قد حرك ذكريات الماضى، أحس أنه يريد أن يتحدث عن أشياء مازالت تعلق فى ذهنه..

ـ أتعرفين يا حبيبتى؟ منذ كنت طفلاً صغيراً كنت لا أميز تلك الأشياء التى تمر أمامى.. ولكنها مازالت عالقة فى ذهنى حتى الآن،

كان عقلى يوماً تلو الآخر يفسرها، كانت أحداثاً فظيعة متراكمة من المشاكل والصراخ المكبوت...، كنت الوحيد الذى يتكلم ويضحك.. وكانت معظم رغباتى تلبى ولكن لا أدرى ما سر هذا الصمت الذى يجتاح المنزل.. بدأت أسئلتى تزداد.. دون جدوى، الكلمات تتلعثم فى فم أمى، وكنت لا أجلس مع أبى إلا فترات متباعدة. وددت ألا أعيش هذا الحصار الصامت .. صمت فظيع وكئيب، حتى أوقات اللهو محدودة .. ذات يوم كنا نجلس على مائدة الطعام،.. سألت أبى:

ـ أليس لدينا أقارب؟! معظم زملائى يزورون أقاربهم وأصدقائهم..

نظر أبى بهدوء وهو يحدق فى أمى.. وقال:

ـ بالتأكيد لك أقارب كثيرون ولكنهم فى أماكن بعيدة تبعد عنا مسافات طويلة.

قلت له:

ـ من الممكن أن نزورهم ونقضى العطلة هناك.

لم يأبه.. أومأ برأسه قائلا:

ـ بمشيئة الله.. فى القريب العاجل!

كانت أمى الجالسة بجوارى تحثنى على الصمت... نظرت إليها وأردت ألا أظل صامتاً مثلهما، تناولت شريحة من اللحم وقلت مداعباً:

ـ لابد أن تأخذى هذه.

مدت يدها ولكننى التهمت شريحة اللحم سريعاً... كانت الابتسامة جميلة جداً وهى ترتسم على وجه أمى.. عاودت أسئلتى مرة أخرى:

ـ عرفت أن أقارب أبى يقيمون فى محافظات نائية .. وأقاربك هل يقيمون فى أماكن بعيدة أيضاً؟

شحب لونها، حاولت أن تلزمنى الصمت..، لحظتها توقف الطعام فى حلقى، لا أعرف ما الرغبة التى تساورنى لمعرفة الأهل؟ أريد أن أعرف سر هذا الصمت.

الأيام تمر وحيرتى تكبر...

انتبه مخلص على صوت صغير يدوى فى أرجاء الحديقة:

(هيا يا سادة .. انتهت مواعيد الحديقة .. هيا ..!!)

تأهب مخلص للخروج، تشابكت أيديهما، خرجا، أحس أن السعادة التى يشعر بها تجعل الساعات تمر سريعاً حتى أثناء حديثه مع وفاء، بدأ ينظر للأشياء نظرة أخرى... كل الأشياء تبدو جميلة .. وما أن وصلا إلى المنزل حتى قال:

ـ ها قد مر اليوم دون أن احتفل بك .. شىء غريب .. الساعات تمر سريعا... بالرغم من أننى تركت معظم المهنئين لى فى حفل الصباح.

* قالت وفاء مكملة:

ـ وجئت لتحتفل بى بعيداً عن كل الناس.

أخذا يضحكان ثم راحت وفاء ترتدى ملابس النوم وبدأت تجهز المائدة .. جلس مخلص ينظر إلى الرداء الأحمر الشفاف الذى ترتديه ..

وبدأ يتناول الطعام... فجأة انهالت عليهما المكالمات (التليفونية) الجميع يهنئون مخلص على فوزه فى المشروع الهندسى والحصول

على الجائزة التشجيعية التى ستقدمها الدولة له.. أسماء كثيرة وشخصيات يعرفها وبعضها ممن يسمع عنهم فى عالم التصميمات والمشاريع الهندسية.. فجأة رن جرس التليفون

* نظرت إليه وسألته بصوت هامس:

ـ من؟

ـ صوت نسائى.. من المحتمل أن تكون إحدى صديقاتك!!

فجأة ارتفع صوت وفاء أثناء معرفتها من التى تتحدث وقد بدأ عليها الغيظ وضعت يدها على سماعة (التليفون) وقالت:

ـ إنها سيدة تريد أن تتسامر فى هذا الوقت.. سوف أضع السماعة.

قال مخلص وهو يأخذ منها سماعة (التليفون):

ـ انتظرى.. من التى تتحدث؟ نعم... أعرف هذا الصوت ولكننى لا أستطيع تحديده الآن.. بارك الله فيك،.. شكراً.. اشتقت إلى رؤياك جدا.. نعم القمر يجلس بجانبى..

كانت تنظر إليه بقلق شديد وبدا عليها الغيظ.. لاحظ مخلص حيرتها فارتسم السرور على وجهه، طلبت وفاء منه أن يضع (التليفون)، لكن مخلص أعطاها السماعة لكى تتحدث،.. قالت:

ـ يجب أن تنهى الحديث فوراً إذا كان لديك شيئاً من...!!

من؟! ماما.. آسفة جداً يا حياتى.. بارك الله فيك يا ماما!!

نظر إليها ثم ضحك وبدأ يداعب وجنتيها وشعرها الذهبى المنساب على كتفيها، ابتسمت وفاء ونظرت إليه تطلب منه أن يكف عن مداعبتها حتى تفرغ من مكالمتها.. وما أن انتهت وضعت (سماعة التليفون) وقالت:

ـ ماما سعيدة جداً لحصولك على الجائزة

أرادت وفاء أن تعتذر عن تصرفاتها أثناء حديثه فى التليفون ولكنه أوقف كلامها بقبلة ملتهبة وقد وضعت رأسها على صدره... فجأة رن مفرق الجماعات (جرس التليفون).

أجابت وفاء قائلة:

ـ بارك الله فيك.. أشكرك.. نعم إنه بجوارى.

أخذ مخلص السماعة وقال:

ـ مساء الخير يا عزيز.. بارك الله فيك.. بالطبع نعم.. أنت تعلم أننى انتظرت كثيراً من أجل الحصول عليها.. الحمد لله.. أشكرك.. مع السلامة.

بدأ يكملان تناول الطعام والسعادة تتطاير حولهما، فجأة ابتسم مخلص وقال:

ـ إن أجمل ما فى الوجود أن يشعر الإنسان بنشوة هذا الحب، على وجه الخصوص عندما يصبح قريباً منك!!

ضحكت بدلال،.. راح يحملها بين ذراعيه ووضعها على البساط الوردى وهو يتأمل عينيها الجميلتين اللتين تشعان سعادة.. اقتربت

شفاهما إلى أن ذابت... ما أجمل أن تصير الروح واحدة، والجسد واحد.. أخذ مخلص يشعل (سيجارة) وقد أمسكت وفاء يده وأشعلت له (السيجارة).

... إنها تريد أن تشاركه كل شيء.. نظراته، فرحه، حزنه، قلقه، تفكيره، حتى أنفاسه،... وضعت يديها تتحسسان شعره تداعبانه، استجاب فرحاً لملامسة يديها الناعمتين.. يداها اللتان تفيضان حناناً كالينابيع، أحس مخلص أن آثار الماضى المتراكمة داخله تتبدل بكم هائل من الحب المتأجج والمشاعر الرقيقة التى تفيض عندما تجد من يبعثها، بل تبعث وتزداد تأججًا وصدقًا مع الأيام لتصبح شلالات وينابيع تثرى الطبيعة جمالا آخر فتشعر بسعادة لا مثيل لها... أخيراً وجد مخلص من يفك أسره ويجعله يحقق أهدافه وأحلامه وطموحاته.. أخيراً ابتسمت له الحياة ونادى الحب بموسيقاه الطبيعية هبات النسيم وصوت الكنارى وسنا القمر ليعيد بناء المدينة الجميلة التى تمناها وعاش يحلم بها.

كانت وفاء تداعب الدخان المتطاير من (سيجارته) بضحكات رقيقة وعيناها تتأملان .. وجه حبيبها الهائم، انتبه على صوتها...

ـ مخلص.. أريد أن أنتزع منك كل ماضيك الذى يأخذك منى.

ابتسم مخلص ثم قالت مكملة:

ـ أود أن أعرف كل شيء عنك حتى تقابلنا، ثم إنك لم تحك لى عن ذلك الصمت الذى كان يشغل أسرتك ويتغلغل فيك حتى الآن!!

راح مخلص يداعبها بكلمات معسولة تثير الضحك، لكنها ألحت عليه أن يكمل حديثه عن حياته.. ماضيه..

شرد في الماضي وبصوت خافت قال:

كان والدى موظفاً بسيطاً، انساناً مسالماً جداً، أحب أمى كثيراً عاشا قصة حب عنيفة.. لكن الدنيا غالباً ما تخالف رغبات البشر.. كانت أمى من أسرة ثرية لها تقاليدها وعاداتها (الأرستقراطية) لكن كان الحظ معانداً لهما، لم يحالفهما التوفيق فى الزواج من بعضهما بسبب أسرتها، لم تستسلم أمى لرفض أبيها.. فرت من منزلها لتتزوج من أبى، بدأت أسرتها تطاردهما،... كثرت مضايقتهم لأبى فى عمله.. وأخذوا يتوعدونه.

كان أبى نداً لهم، قاوم كثيراً ولكنهم أصروا أن يستسلم ويحل وعده لها ورباط زواجهما... الظلم والاضطهاد والقهر يلاحقونه.. وقف فارس دون سلاح. مرت الأيام إلى أن انجبت أمى طفلاً سعدت به كثيراً وملأ حياتها.

ذات يوم عاد أبى من عمله وجد المنزل منهاراً محطمًا، لم يجد زوجته وطفله، فأخذ يبحث عنهما.. دون جدوى.. .جن جنونه، أرشده تفكيره أن أسرة زوجته هى التى فعلت هذه المصيبة، راح مهرولاً لاهثاً قابله أبوها بالصد وقال بكبرياء:

ـ يجب أن تنسى أن لك زوجة.. أخرج من بيتى..

وبدأ ينهال عليه بالسب والإهانات.. سمع أبى صوت أمى وهى تستنجد به، أخذ يجرى تجاهها.. لكنهم لم يتركوه انهالوا عليه

بالضرب.. كانت صرخات أمى تدوى فى أرجاء المنزل.. لا أحد يستجيب لصرخاتها.. الصرخات ترتفع فى أذنيه ماذا يفعل بمفرده؟!!

... وجد نفسه ملقى فى مكان بعيد فجرى إلى أن وصل لأقرب (قسم شرطة) واصطحبهم معه ليأخذ زوجته... فوجئ بأنها ليست بالمنزل وكل شيء بدا عادياً.

صمت مخلص لحظة.. ناولته وفاء (سيجارة) وقالت باهتمام بالغ:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟

ـ يبدو أنك مغرمة بالحكايات والروايات المأسوية.

* قالت وفاء بإلحاح:

ـ يبدو أنك مغرم بكبت الأحزان داخلك.. ماذا فعل والدك؟

نظر مخلص إليها وقد شعر بأسى دفين ثم أكمل:

عاد أبى يائسًا محبطاً يلعن الظروف والأيام وظلم الناس... وجد زوجته التعسة تجلس منزوية تحتضن طفلها وسط الحطام الذى تسببت فيه أسرتها.. جرى أبى مسرعاً إليها وأخذ يعانقها بينما انهمرت الدموع من عينيها وهى تنظر لطفلها نادبة حظها.. كظم أبى ثورته وحقده جراء ما حدث.. تناسيا ما حدث لهما، أخذا يبحثان عن طبيب... وما أن وصلا كانت أمى تنفطر ألماً على طفلها..

قال الطبيب بهدوء:

ـ هدئى من روعك يا سيدتى.. ماذا حدث؟

قال أبى بأسى:

ـ تركته أمه وسط صراخ وشجار لأناس ليس لديهم رحمة، يبدو أنه فزع أو انتابته حالة من الصرع.

بدأ الطبيب يتفحص الطفل وقال:

ـ هل تناول شيئاً أو أعطيته غذاء غير صالح.

قالت أمى باستغراب.

ـ كلا.

قال الدكتور:

ـ يبدو أن هنالك شخصاً قد أعطاه شيئاً لعقه لم يتحمله بدن هذا المسكين... وصف لهما بعض الأدوية والمطهرات الطبية... وما أن عادوا إلى المنزل... انهمرت أمى فى البكاء.. قد مات الطفل، لم يكن بمقدور أبى إثبات هذه الفعلة الشنعاء التى فعلها أهل أمى.. فقد قتل نتيجة حقد أسرة أمى، حزنت أمى كثيراً ومقت أبى الدنيا وما عليها وظلا ينعيان همهما وحزنهما حتى رزقهما الله بى.

كانت الدموع تسيل من عينى وفاء أثناء حديثه، شاجبة الفعلة غير الإنسانية.. بينما راح مخلص يكمل بصوت مختنق بالحزن:

أدركت معنى الحزن والصمت وأحسست لحظتها برغبة الانتقام.. لكن أين؟ لا أدرى – أصبحت أتمثل بالصمت تماما مثلهم رغم صغر سنى، ظل يكبر معى.. حتى أصدقائى فى الجامعة الذين أكن لهم كل

حب وتقدير كانوا يثيرون مشاعرى.. لأننى كنت قليل الكلام.. كانت مشكلتى هى الثراء.

فقد مات أخى نتيجة لاعتراض أسرة ثرية كل اهتمامهم بأن ابنتهم لا تنجب طفلاً من موظف فقير.. تأثرت كثيراً بهذه الحادثة.. لكننى واصلت دراستى بتفوق كى أجد لنفسى مكانة أستطيع من خلالها أن أقف أمام الأسرة التى قتلت السعادة فى أسرتى!.. لكن دون جدوى».. أنت تكبر.. والآخرون يكبرون!!!

قامت وفاء وفتحت (الكاسيت) على موسيقى جميلة هادئة... كان بريق عينيها يتلألأ فى وجدانه، شعر بالانتعاش والدفء.. قال مخلص:

ـ دائما كعادتك.. رقيقة وجميلة.. أن حبك لى جعل كل الأشياء رائعة وجميلة.. تغير كل ما بداخلى من انتقام وحزن وملل إلى نقيضه..

أخفضت وفاء صوت «الكاسيت» وقالت بدهاء أنثوى:

ـ مخلص هل كانت لك صديقات؟

أجاب مخلص مستغرباً:

ـ بكل تأكيد.

ـ هل أحببت إحداهن؟

صمت لحظة ثم أجاب بدهاء:

ـ قابلت صديقات كثيرات كان معظمهن من ذوات التفكير العصرى يحبون السهر واللهو والحفلات الصاخبة... عرفت إحداهن وأعجبت بها، كانت من أسرة (أرستقراطية) عرضت على أن أتقدم لأسرتها، لكنى أبيت، خشية أن أكرر مأساة والدى.. فكرت كثيراً وتراجعت.. لكن صديقى عزيز ومؤنس غيرا وجهة نظرى وقالا إن الحياة قد تغيرت وتطورت وليس هنالك عقليات تفكر فى هذه الأمور.

فكرت كثيراً.. أخذت أنظر للأمور بشكل آخر، ذهبت أعرض على أسرتها مشروع فكرة الخطوبة من ابنتهم.. قبل أن أكمل سمعت ما لايرضى النفس.. خرجت من منزلهم وكل فكرى أن أخرج من هذا المجتمع.. عرف عزيز ومؤنس، أخذا يؤزرانى ويخففان عنى أحزانى.. وترددت بعد ذلك على حديقة الأحلام فهى المكان الأوحد الذى أشعر فيه بارتياح.. حتى رأيت أجمل حورية رزقنى بها الله.

قالت وفاء:

ـ لقد أعدت إليك ماضياً آمل أن تمحوه.. عرفت الآن لماذا لم تقبل أن أتعيش فى (الفيلا) من قبل.. إنى آسفة.

ـ لا تتأسفى أرجوك.. الفارق كبير جداً بين حبك.. والعالم كله..، صدقينى قد ارتاح قلبى لخروج هذه الكلمات.

راحت وفاء تقبله وقد تذكرت شيئاً قالت:

ـ متى سيتم تسليم الجائزة؟

أجاب مخلص وهو يفرك عينيه..

ـ بعد ثلاثة أيام وسوف تقام حفلة ليلا.

ـ بالطبع سأحضر معك.

قال مخلص بصوت ناعس.

إذن هيا إلى النوم حتى نستعد لذلك اليوم.

ارتفعت ضحكات وفاء عندما بدأ يداعبها حتى ذابت الكلمات بينهما لتعلن عن فجر يوم جديد.

* * *

٦

وسط جمع كبير من كبار المصممين ورجال الأعمال .. وقف مخلص يتسلم الجائزة والشهادات التقديرية وسط ترحيب حار، وقد أعلنت الجهة المختصة عن حفل يقام فى أحد الأماكن الفخمة احتفالاً بالفائزين، وقف عزيز ومؤنس والسعادة تملأهما لفوز مخلص الذى لم يستطع أن يتمالك مشاعره، وراح يحلم بعالم المثل والطموحات.. يحلم بالمدينة الفاضلة التى ستطل على العالم وتجعله متدفقًا بالحب والسعادة....

أخيراً ابتسمت لك الدنيا وأصبحت تحقق ما تريده.. أخيراً ستحطم الفوارق الدنيوية التى غزت عالمك يوماً ما وستحبو نحو غايات الأشياء، وعالم المثل وستعود الطيور الى أعشاشها ويغنى الوليد فى رحم الأم وسيشدوا العالم كله عند بناء مدينة الاحلام!

كان عزيز ومؤنس يتحدثان إلى مخلص الذى انتبه على صوتهما فقال مؤنس مداعباً:

ـ لا .. لست معنا بالمرة.

قال عزيز معلقاً:

ـ معنا!! مع الجائزة يا صديقى!!

بدأ الجميع يخرجون من القاعة الكبرى وسط نظرات الآخرين وتهنئتهم لمخلص.. وقف مؤنس وقال مباغتاً..

ـ لابد أن تحتفل بنا يا صديقى على نفقتك الخاصة.

ابتسم عزيز على سبيل المجاملة ولكز مؤنس وهو يقول

ـ نعم .. لابد أن نحتفل.. فصديقنا اليوم أصبح من الأثرياء.

أراد مخلص أن يحتفل بطريقته الخاصة.. طلب من عزيز ومؤنس أن يذهبا معه.. ركبوا جميعًا السيارة وقد غير مخلص خط السير وتوقف أمام (فيلا) أم وفاء وطلب من صديقيه أن ينتظراه وصعد ليحضر الأم.. أثناء سيرهما قال عزيز لمؤنس.

ـ أتعرف؟ عندما قابلت مخلص كان إنساناً آخر، ولكن الشيء الجميل أنه كان يعمل فى صمت، يحاول أن يتحدى الصعاب... كنت أشعر أنه يومًا ما سيصبح ذو مكانة عظيمة.. أنت تستحق كل تقدير وخير يا صديقى العزيز.

نظر مؤنس اليه غاضبًا وقد تدارك عزيز نظرات مؤنس فقال بسخرية:

ـ وأنت أيضاً يا مؤنس تستحق كل تقدير وإعجاب!

أخذ الجميع يضحكون بصحبة الأم الحنون.. لم ينس مخلص أن يصطحب معه كل من أحبوه فى الحفلة الخاصة الأسرية، كانت وفاء تنتظر بفارغ الصبر..

* فقالت بصوت فرح:

ـ ألف مبروك يا حبيبى.. لقد تأخرت كثيراً.

راحت ترحب بصديقيه وتقبل أمها.. جلس الجميع يتبادلون الحديث عن نجاح مخلص، أثناء تناولهم المشروبات على أنغام الموسيقى الهادئة التى أعدتها وفاء، طلب مخلص من الجميع أن يحضروا معه الحفل الرسمى المقام له...

غادر عزيز ومؤنس المنزل وهما يهنئانه ثانية..

ـ ألف مبروك.. إلى اللقاء.

قامت وفاء ترتدى ملابسها استعداداً للخروج مع مخلص وأمها، وعندما ركبوا السيارة.. انطلقت مسرعة

* قال مخلص:

ـ هدئى من السرعة.. لا أحد يلاحقنا!

ـ أننى أسير ببطء.. لكن يبدو أن السيارة فرحة أيضاً لفوزك!

ـ عندما تسلمت الجائزة وشهادة التقدير.. قال لى أحد المسئولين أن هذا التصميم ستهتم الدولة به، وسوف يتم تنفيذه بعد أن يتم وضع ميزانية له:

* قالت الأم باستفسار:

ـ يبدو أنه مشروع ضخم جداً؟

ـ بكل تأكيد يا ماما.. مخلص طرح أفكاره في هذا التصميم.. إنه ليس تصميماً فحسب بل حلا لمشاكل كثيرة. مخلص إنسان طموح وذكي... أنا أعتقد أنه سيصل الى مكانة عظيمة.

أشعل مخلص (سيجارة) وقال:

ـ أشكرك يا أجمل أم في العالم.

أرادت الأم أن تعرف أهمية المشروع.. قالت باستفسار.

ـ أحك لي عن التصميم والمشروع.

ـ أنه مشروع قومي عبارة عن برجين هائلين سيشيدان على مساحة فضاء شاسعة، ويشغلهما أكبر عدد من السكان.. فقد فكرت مراراً في الأزمات التي تواجهنا في الزحام الشديد والمواصلات وخلافهما حتى توصلت لاقتراح عرضته على الجهة المختصة.

* قالت الأم باهتمام:

ـ ما هو الاقتراح؟

أجاب مخلص:

وجدت أن بعض المؤسسات والهيئات تشغل المنافذ الهامة في المدينة فتجعل النظام العام لها مرتبكاً.. اهتدى تفكيري أن أجعل

الأبراج يشمل معظم المؤسسات والهيئات والوزارات، البرج الآخر يقطن فيه معظم العاملين فى تلك المصالح والهيئات، ستوفر لهم معظم متطلبات الحياة... اعتبرت أن هذين البرجين مدينة صغيرة خارج نطاق المدينة

* قالت الأم بإعجاب:

- حقاً.. مشروع يستحق كل التقدير والأهمية!!

توقفت السيارة أمام قاعة الاحتفالات.. دخل مخلص وبصحبته زوجته وأمها، غصت القاعة برجال الأعمال والمشاريع الاستثمارية، وأخذ الجميع يهنئونه ويأخذون الصور التذكارية معه، بدأت الموسيقى تعزف ألحانها الجميلة.

كان مخلص يجلس فى مكان يتوسط القاعة، والجميع يمعن النظر إليه.. كان منشغلا بتهنئته وترحيب الآخرين له بينما أخذا عزيز ومؤنس وزوجتيهما وبدأوا يستعدون للرقص على إنغام الموسيقى.

* قالت وفاء لمخلص بابتسامة:

- الجميع ينظرون تجاهك.. كل من حضر هنا يترقب عريس هذه الليلة.. أننى سعيدة جداً.

- يكفى أننى أجلس الآن مع أجمل سيدة فى العالم.. انظرى.. ليست هناك سيدة واحدة تجلس فى هذا الحفل تساوى شيئاً فى جمالك المبهر أوابتسامتك الرقيقة.

* قالت الأم بصوت رقيق:

ـ أتعرف؟ أنك دائمًا تذكرني بزوجي إلى حد سواء في أفعالك وتصرفاتك.. وأثناء حديثما اقترب بعض رجال ومالكو القطاعات الاستثمارية لتهنئة مخلص.. أنضم إليهم عزيز وبدأ يقدمهم لمخلص...

ـ شحاته بك.. أكبر رجال المشاريع الاستثمارية في الدولة.

* قال مخلص بصوت جاد:

ـ أهلاً وسهلاً.. سمعت كثيراً عن مشاريعك.. سعدت بلقائك يا شحاته بك.

قال شحاته وهو يشعل (سيجار) بصوت جهوري:

ـ أقدم لك زوجتي.. دولت هانم.

ـ تشرفنا كثيراً يا فندم.. وفاء زوجتي.. والدة وفاء.

قالت دولت بكبرياء:

ـ أهلاً وسهلاً.

أكمل عزيز تقديمه للآخرين...

ـ الأستاذ عبد الجبار وحرمه.. الأستاذ سيد...

أكمل الأستاذ سيد:

ـ السيدة ليزا.. من سيدات الأعمال ولها مشاريع كبرى هنا.

رحب مـخلص بالجـميع، كـانت وفـاء سعيدة بالأهتام البـالغ الذى يحظى به مخلص.

.. لم تفارق عيناها التـحديق فى عينى مـخلص الذى نسى كل من ألتف حوله.

.. لم يتبق سوى وفاء والنظرات الفياضة.. بغتة وقف الأستاذ سيد وطلب من وفاء أن ترقص معه..

قالت وفاء بارتباك:

ـ معذرة.. أننى الآن غير متأهبة للرقص،

راقبت ليزا نظرات مخلص المتلهفة على زوجته وقالت:

ـ سمـعت كـثـيراً عن التـصـمـيم العظيم الذى تقـدمت به يا أسـتـاذ مخلص.

ـ أشكرك على شعورك الطيب.

ـ أوه.. ما أجمل هذه الموسيقى.. هل تحب أن ترقص؟

نظر مـخلص إليها وصمت، نظرات وفـاء إليـه تحـثه على الموافقة.. نظر مخلص إلى ليزا وهو منتبه لوفاء وقال:

ـ كما ترغبين.

ذهبا يرقصان وأخذ سيد يتحدث مع وفاء، وهى غير منتبهه لكلماته بينما أخذت وفاء تمعن النظر فى مخلص أثناء رقصه مع ليزا.. أيضاً لم

تبرح نظراته وجه زوجته.. بدأت السيدة الاجنبية ليزا تبرز أنوثتها أثناء الرقص، والخجل يتملك مخلص الذى أخذ يبتعد شيئاً ما عنها.. اقتربت ليزا منه وقالت بدلال:

ـ يبدو وأنك ذو مشاعر رقيقة.. أتعرف؟ رجل في وسامتك وطموحاتك لابد أن يصبح كبير المصممين!

ـ أشكرك.. هذه شهادة أعتز بها يا فندم.

ـ أفندم!! لاداعى للألقاب.

ضحك مخلص على سبيل المجاملة، نظرت ليزا بطرف عينها إلى وفاء وقالت بدهاء:

ـ زوجتك جميلة جداً.. يبدو أنها تحبك كثير؟!

نظر مخاص تجاه وفاء مبتسماً وقال باندهاش:

ـ يبدو ذلك!!

ـ وأنت.. هل..؟

ارتسمت على وجهه الصرامة والارتباك ثم قال:

ـ بكل تأكيد.

قالت بدلال:

ـ هل لأنها زوجتك؟

ـ نعم وأيضاً لأنها...

مقاطعة ارتبكت ليزا وبدا عليها القلق.. أرادت أن تغير الحديث فقالت:

ـ هل تعرف يا أستاذ مخلص؟

ـ ماذا؟

ـ أننى امتلك إحدى الشركات التى ستساهم فى هذا المشروع.

قال مخلص مستفسراً:

ـ أى مشروع؟

ـ المسابقة التى تم الأعلان عنها والتى أخذت عنها الجائزة.

قال مخلص مقاطعاً:

ـ أعرف أن مؤسسة حكومية هى التى أعلنت عنها.

ـ نعم ولكن.. مشروع ضخم كهذا يحتاج لمبالغ طائلة وقد طلبت المؤسسة من بعض الشركات الاستثمارية التعاون معها وشركتى واحدة منهم.

ـ فهمت!! لكن..

قالت ليزا مقاطعة:

ـ لكن معظم المساهمين فى هذا المشروع اقترحوا أسمك لتنفيذ هذا التصميم.

انتبها على التصفيق اثر انتهاء الرقصة.. اتجه مخلص نحو مائدته، لكن ليزا أوقفته وقد امسكت يده وقالت:

ـ انتظر يجب أن نتفق... أقصد يجب أن نكمل حديثنا.. سأنتظرك غداً فى مكتبى أو على الأقل أتلقى منك مكالمة نتفق فيها على موعد.

قال مخلص وهو يحاول أن يترك يدها بهدوء..

ـ إن شاء الله.

عاد مسرعاً وجلس بجوار زوجته ثم همس فى أذنها..

ـ تأخرت عليك يا حبيبتى؟

ـ كلا.. هؤلاء ضيوف الحفل ولابد أن تجاملهم.

قالت ليزا مقاطعة وقد أخرجت من حقيبتها (كارت) به رقم الهاتف.

ـ ها هو الرقم يا أستاذ مخلص.. سأنتظر منك مكالمة.

راحت ليزا ترقص مع الأستاذ سيد، وجلس شحاته بك يتحدث مع مخلص فى الصفقات التجارية والأعمال الهندسية، كان مخلص غير منتبه لكلماته... فقط كان ينظر إليه... ضحك شحاته بك وأخذ يتحدث بطريقة مبهرة...

ـ يبدو أنك لست مهتمًا يا أستاذ مخلص.. أننى أعرض عليك أن تكون كبير المصممين فى شركتى وسيكون راتبك كبيراً.. لا أنتظر منك إجابة الآن.. فكر وسأنتظر جوابك.

قال مخلص:

ـ إن شاء الله سأفكر فى الأمر.

أستأذن شحاته وأخذ زوجته ليرقصا معا... أصبحت هذه القاعة التى يرقص فيها هؤلاء الناس مكاناً للصفقات والمشاريع.. الجميع يرقصون!!

نظر مخلص إلى وفاء يتأمل المدينة الجميلة التى تسكن عينيها.. وقفت وفاء والابتسامة تغنى على شفتيها بينما وقف مخلص ومد يديه إليها واتجها إلى قاعة المشاريع الراقصة!!

تغير إيقاع الموسيقى إلى نغم هادئ حالم.. أقتربت العيون من بعضها وفاضت الأيادى أحاديثها، السعادة تغمرهما، ولم يشعرا بوجود الآخرين.، أصبح المكان عالماً آخر.. جنة ينعمان بها معاً.

قال مخلص بهمس:

ـ عندما أمسك يديك وأسبح فى بحور عينيك يصبح العالم ملك يدى... ها هى أول أمنية تتحقق.. قد سكننى الحظ منذ التقينا يا حبيبتى هذا غير الصفقات وأصحاب المشاريع الذين عرضوا على القيام بها .

همست بصوت عذب!

ـ بل أنا التى...!! اللحظة معك عمر بكامله.. هناك مفاجأة أخرى سعيدة لم تعرفها بعد:

قال مخلص وهو يمعن النظر إليها:

ـ هل توجد مفاجأة سعيدة فى العالم أجمل مما فيه أنا الآن!

ـ نعم شيئاً ستسعد به كثيراً.

ـ أنا لا أتحمل أكثر من هذا.. تكفينى السعادة التى أعيشها الآن.

ـ إن السعادة التى نعيشها الآن مؤقته يا حبيبى.. إننى..

قال مخلص مقاطعاً:

ـ ماذا؟

قالت وفاء بخجل:

ـ منذ ثلاثة أيام أردت أن أخبرك بها ولكننى قررت أن أجعلها لك مفاجأة بعد استلام الجائزة.

ازداد ولع مخلص وبدأ يلح فى معرفة هذه المفاجأة.. قالت بسعادة.

ـ لقد قال الطبيب لى إننى سأرزق بمولود

ملأت عيونه الفرحة وجاشت أحاسيسه بأنفعالات شتى دون وعى، ويتحدث بصوت مفرح مرتفع وهو يعانق وفاء.. أراد أن يقول للعالم كله فى هذه اللحظة إنه سيصبح أباً.. فجأة توقف عن الرقص ونظر إلى وفاء.. قال:

ـ لماذا تركتنا نرقص؟ من هذه اللحظة لا يجب أن تتحركى كثيراً.

أخذ وفاء وراحا يجلسان .. استيقظت الأم الهادئة من حلمها المستمر فى أطلال ذكرياتها، عرفت الخبر السعيد بقدوم حفيدها.

قالت بسعادة:

ـ ألف مبروك يا أبنائى

قالا معاً:

ـ بارك الله فيك.

لم تبرح الابتسامة وجوههم، السعادة قد اتخذت قلوبهم موطناً...

نظرت الأم بشوق بالغ إليهما وقالت:

ـ طابت ليلتكما.. لا تتأخرا كثيراً عنى.. سأنتظر منك مكالمة يا وفاء.

ـ سأتصل بك باكر إن شاء الله يا ماما... طابت ليلتك.

ذهبت الأم وانطلقت السيارة بهدوء. كأنها تتراقص معبرة عن السعادة التى تغمرهما... لم يكن هناك حديث بينهما بل ظلا صامتين طوال الطريق حتى وصلا ودخلا بستان أحلامهما، كالعادة حمل مخلص حوريته الجميلة ووضعها برقة على بساطها الوردى... نظر إليها متأملا.. ها أنت قادم يا من تتربع على عرش سعادتنا وتتوج الحلم فينا.. ستغزو العالم الموجود داخلنا بقناديلك القمرية، تعيد أنشودة الأمان وتصبح فارس المستقبل!

أنتبه على صوت وفاء..

ـ طابت ليلتك يا حبيبى.

ـ النوم قد غادر جفنى، عندما أكون يجوارك تظل عيناى هائمتين تنعمان بك

قالت وفاء مقاطعة:

ـ و.... الرقص الملتهب مع...

ـ مع من؟

أجابت وفاء والغيرة قد أرتسمت على وجهها:

ـ مع تلك السيدة التى كانت ترقص معك

ضحك مخلص وقال:

ـ الريبة.. الغيرة.. الحيرة!! اعلمى جيداً يا حبيبتى أن غذاء روحى هو قلبك الشفاف الرقيق.

.. هل تذكرين يوم تعارفنا..! شهدت العصافير عهدنا، باركت السماء وعدنا وحفظ الله سرنا... لن أخونك أبداً حبيبتى، أما تلك السيدة المتصابية.. أنت تعرفين جيداً أن عينى لم تبارحك. كان قلبى وروحى يرقصان معك، ثم أننى كنت لا أريد أن أرقص..

قالت وفاء مكملة:

ـ لا أريد أن يشاركنى أحد فى النظر إليك أو حتى يتلمس يديك.

مدت وفاء يديها واقتربت منه وهمست بدفء:

ـ أننى أحبك.

نظر مخلص اليها وأخذ يتنسم عبيرها وقال:

ـ أتعرفين؟ هذه هى المرة الأولى التى نطق بها لسانك الرقيق.. (أحبك) يا الله ما أجملها، كانت روعة أحاسيسك المرهفة تشع وتملأ روحى عذوبة والآن أسمعها منك نغماً موسيقياً فتسكن روحى الهائمة بترانيم تجوب شريانى ووريدى بل وكل أوتارى!!

وضع يديه على وجهها الرقيق الناعم المرمرى، وقد أحس باللهيب المتأجج الساكن فى شفتيها، والنبضات المغناه التى يصدرها قلبها، والعيون الساحرة الملونة التى كلما نظر فيهما واقترب منهما صار فى عالم مملوء بالفل والياسمين...

أقتربت وفاء وعانقته فى قبلة طويلة ذابت فيها الأشواق، وعانق القلب توأمه، وتناغمت موسيقاه فرقصت عليه روحيهما وهامتا سابحتين متحررتين من قيود الجسد والدنيا.

لم تدم السعادة طويلا إلا دقائق فاضت سعادتهما، فقد رن مفرق الأحباب (التليفون) أجابت وفاء:

ـ مساء الخير.. نعم.. لحظة واحدة، إنه لك.

قال مخلص باستفسار:

ـ من؟

قالت وفاء بصرامة:

ـ ليزا

أخذ مخلص (التليفون) وقال:

ـ نعم.. مساء الخير.. بالطبع سعيد.. يبدو أنك معتادة على السهر!!..

ماذا؟ حسناً سأفكر.. طابت ليلتك.

أخذت وفاء السماعة ووضعتها بغيظ وقالت:

ـ أليس غريباً أن تتصل فى هذا الوقت المتأخر؟ إنها إنسانة غير جديرة بالاحترام.. ماذا تريد؟

ـ أنها تقيم حفل عشاء غداً وأرادت دعوتنا.

أجابت وفاء:

ـ كيفما ترغب!!

قال مخلص بتعقل:

ـ هذه السيدة... نحن بالنسبة لها صفقة بل وصفقة ثمينة جداً، إنها تريد أن نتعاون معاً.. اليوم اعطتنى رقم هاتفها.. لكن يبدو أنها شغوفة جداً وتود أن تنهى صفقاتها فى أسرع وقت.

قالت وفاء باستفسار:

وما علاقتها بالصفقات؟

ـ هذه السيدة الأجنبية تساهم برأس مال شركتها فى المشروع الذى سينفذ، أعتقد أنها تود أن تفهم بعض الأشياء عن طريقى.

قالت وفاء بثقة:

ـ لابد أن نذهب للحفل غداً حتى تتأكد ماذا تريد بالضبط؟

قال مخلص مداعباً:

ـ هل ستكونين قلقة؟

ـ أعرف جيداً أن قلبك ليس لأحد سواى.

ربت مخلص عليها وأستلقى على فراشه، بينما أخذت وفاء تتأهب للنوم وقالت:

ـ طابت ليلتك يا حبيبى.

أغمض مخلص عينيه فى تلك الليلة لكن قلبه مازال يقظاً يتأمل الأحداث التى مرت به، ثم نظر إلى وفاء الغارقة فى نومها.. كان كل ما يقلقه هو حيرتها وقلقها وسط هذا المجال التجارى.

* * *



لم يكن مخلص يسعى لتحقيق النجاح فى عمله أو مشروعه فقط، بل كان شاغله هو تحقيق ذاته من خلال أحاسيسه النبيلة على المستوى الإنسانى.... أراد أن يعيد بناء ذاته حتى يعيش الحياة التى حلم بها، بعيداً عن الصفقات الزائفة، وبرغم هذا الوسط الزائف. قرر مخلص أن يدخل هذا المضمار.

تأهب مخلص للذهاب وأخذ وفاء معه إلى الحفل التى تقيمه ليزا.. وما أن وصلا استقبلتهم ليزا بترحيب حار.. كانت ترتدى ثياباً أنيقة تدل على ثرائها، كان المنزل مجهز بطريقة ساحرة جميلة.. تضيئه الشموع، الورود تزين المكان وصوت الموسيقى الهادئة قد أعطى حساً جمالياً للمكان.

أخذوا يتناقشون حول بعض المشروعات.. جلس الأستاذ سيد صديق ليزا يتحدث مع مخلص.. بينما جلست ليزا مع وفاء تتناولان بعض المشروبات، كانت نظراتها المترامية إلى مخلص تكاد تفضح أمرها... بدأوا يتناولون الطعام بينما انشغل مخلص فى تبادل الطعام مع وفاء ،

نظرت ليزا إليهما وبدأت تتحدث عن الأرباح التى ستعود عليها بعد تنفيذ المشروع.. كانت النظرات والتصرفات بين ليزا ووفاء تشكل مناورة نسائية مستترة.

* قالت ليزا:

- هل تعرفون.. سر تمسكي بالعيش فى هذه المدينة هو حبى الشديد لها وجمالها وروعتها وأصالة حضارتها وأناسها الطيبون. أليس كذلك يا سيد؟

* أجاب سيد مؤيدا:

- بكل تأكيد سيدتى.. أعجبتك منذ أول وهلة رأيتها.

- لذلك قررت أن أمكث هنا... ، وحولت رأس مالى كله إلى هنا، لأشارك فى مشاريع كثيرة.. أما مشروع «أبراج المدينة» فهو مشروع خاص جداً بالنسبة لى فقد ساهمت بحوالى أكثر من مليار ونصف المليار من الجنيهات.

* قالت وفاء بهدوء:

- معذرة.. اعطنى قليلاً من الملح يا مخلص.

أمسكت ليزا السكين... وقطعت شريحة من اللحم والتهمتها ثم قالت:

- هل تعتقد أنه مبلغ مناسب يا أستاذ مخلص؟

قال سيد بفضول:

- هذا يتوقف على التنفيذ!!

نظرت ليزا إليه بحدة ثم عاودت حديثها مع مخلص:

ـ ما رأيك؟

ـ أعتقد أنه مبلغ لا بأس به!! وأنت كما تقولين أن هناك من يساهم أيضًا. لكنني أعرف أن تنفيذ البرجين تابع لجهة رسمية تتولى الصرف عليهما.

قالت ليزا وهى تلتهم شريحة أخرى من اللحم:

ـ بناء على الاقتراح المقدم منك أخذت الدولة تفكر فى توسيع المشروع... ستصبح مدينة كبرى وسيكون البرجان فى مقدمتها، لذا استدعى الأمر أن تساهم بعض الشركات الاستثمارية فى التعاون مع الجهة الرسمية فى بناء مشروع أبراج المدينة.. كما أتفقنا على تسميتها!!

قال مخلص متعجباً:

ـ أتفقتم!!..

ـ نعم.. بوصفى مساهمة فى المشروع.. لى الحق فى طلب المواصفات المطلوبة والمقترحة.

كانت ليزا قد فرغت تماماً من طعامها وبدأت تتناول بعض ثمار الفاكهة.

ـ وأصبح رأيك أستشارياً فى هذه المواصفات؟

ـ بكل تأكيد.. وأصبحت أنت المهندس المنفذ بوصفك مصمم المشروع.

ـ نعم.. لكن التصميم قد خصص لبرجين فقط.

قالت ليزا:

ـ سيكون البرجان الشامخان مدخلاً للمدينة الجميلة وبقية الأبراج ستنفذ على شاكلة البرجين.

نظر مخلص إلى وفاء وشرد فكره متأملاً .. الأجانب يفكرون ويساهمون فى بناء مدينتنا! يا للعجب أن يفكر الآخرون فى حل مشاكلنا.

أعجب مخلص بفكر وحماس هذه السيدة الأجنبية وتصميمها لتنفيذ المشروع، أنتبه على صوت ليزا:

ـ ألا تحب التفاح يا أستاذ مخلص؟

تناول تفاحة من يدها وشطرها، أعطى زوجته نصفها، بينما أرادت ألا تترك له فرصة للحديث مع وفاء.. قالت بصوت عال:

ـ ما رأيك يا أستاذ مخلص؟

ـ جميل.. يبدو أنه أمريكى

قال سيد مندهشاً:

ـ نعم!! ما هو؟

ـ التفاح.

ضحكت ليزا ضحكة مائعة، بينما نظر إليها مخلص مندهشاً.. قالت:

ـ أقصد المشروع.

قال مخلص متأنياً:

ـ أعتقد أن مثل هذه الأمور لها اعتبارات كثيرة ولابد من إتفاق جميع الجهات المساهمة فى المشروع .. أليس كذلك يا أستاذ سيد؟!

قالت ليزا بسخرية:

ـ حقاً أن الأستاذ سيد كان يعمل فى هذا المجال ولكنه الآن أصبح سكرتيرى الخاص.

نظرت وفاء إلى سيد بأسى وأخذت تنظر إلى مخلص وهو يتحدث معهما ثم شردت عينيها وراحت بعيداً...

كم هى غريبة تلك السيدة، هذه التصرفات والأفعال لم آر من قبل، فقط أشاهدها فى التليفزيون .. هل هذه النوعية من السيدات اللواتى يبتدعن هذه الأفعال يجتذبن الرجال وينلن إعجابهم؟.. هل من الممكن أن يصبح مخلص مثل هذا السيد الذى ترك مهنته واحترف عملاً آخر؟!! وأصبح عبداً ذليلاً لا رأى له.

ظلت وفاء تتخيل مخلص على شاكلة سيد الذى باع نفسه من أجل رغباته.. تصورت أن السيدة ليزا تمارس نفوذها على كل من تريد أن تخضعه لأمرها ومخلص يقف بجوارها مرتديا ثيابا غير مناسبة له.. يقول:

ـ أمرك أيتها السيدة الجميلة.

وقد كانت السيدة ليزا تقف مع آخرين مستمتعة بالحوارات الركيكة الفارغة لا تنتبه إلى كلمات مخلص بينما ردد كلماته ثانية.

ـ أمرك أيتها السيدة الجميلة.

بينما ليزا راحت تسخر من تصرفاته وتأمره أن يلبى لها بعض المتطلبات..

قالت:

ـ يجب أن تذهب إلى الميناء غداً تستقبل الأستاذ سامي!!

ثم اقتربت منه وقالت:

ـ أريدك أن تمر على ليلا قبل ذهابك باكر.

راحت تضحك بأنوثة ووقفت مع آخرين تتحدث إليهم.. بينما جلس مخلص منزوياً ينتظر التعليمات. انتبهت وفاء ومازال ما تتخيله يساور تفكيرها..

لا.. مستحيل أن يصبح مخلص مثل سيد أو غيره.. مخلص الإنسان الطموح الناضج الذى أحبه قلبى وسكن وجدانى لا يمكن أن يتحول إلى هذا النموذج.. لا.. لا..!!

أنتبهت وفاء على صوت ضحكات، نظرت إلى مخلص الذى وقف ومد يده لها وبدأ يتأهب للخروج بينما سارت ليزا معهما حتى تودعهما.

* * *

٨

لم تكن الحياة الحالمة التى تمناها مخلص هى كل ما تبقى فى وجود الأحداث التى تمر به... الخلاص... هو الشىء الوحيد الذى يبحث عنه فى عالم يخوض العقل فيه معاركه من أجل معطيات الحياة المتجمدة، تلك الحياة التى انهارت فيها المعانى لتصب فى شلالات المتعة، والزمن المفقود.. تطغى على كل العوالم الراسخة فينا.

تخبطت الأفكار فى عقل مخلص، فقد احتل وجدانه بين الحياة الهادئة وحلمه مع وفاء، وحياة الواقع التى تطارده فأخذ يثبت عزيمته وآماله....

مرت الأيام فى هذا العالم المملوء بالسهرات والحفلات والصفقات التجارية بين الشخصيات الهامة.. شخصيات تلمع وأخرى تخبو.. انشغل مخلص كثيراً فى تنفيذ مشروع أبراج المدينة وقد ساندته وفاء كثيراً بمشاركتها له فكراً ووجداناً.

ذات يوم ذهب مخلص ووفاء لحفل يقيمه شحاته بك، لم يجدا فى الحفل غير مجموعة كبيرة من السكرتيرات الحسناوات اللواتى يعملن

مع شحاته بك وشخصيات قليلة من رجال الأعمال.. استاء مخلص كثيراً من بعض الأفعال التى تحدث فى الحفل من ضحكات ومحادثات فضولية، أخذ وفاء وترك الحفل وقرر ألا يذهب إلى حفلات أخرى بل عاود مكانه الذى ينعم به مع زوجته (مكان الألتقاء). الذى يعيد واقعهم الحالم بعيداً عن الصفقات والمشاريع وعالم السهرات المملوء بالزيف والمظاهر الكاذبة، أصبحت حديقة الأحلام هى المكان الوحيد الذى يجلس مخلص فيه مع زوجته التى تعطى للمكان جمالاً آخر يزيده جمالاً.. حيث الشمس الساطعة بأشعتها الذهبية، ونسمات الهواء العطرية التى تداعب عصافير الكنارى بنغماتها السحرية، فتفتح الورود وتتمايل الأشجار معها تبصر المقاعد البستانية،تتأمل هذا العالم البمبى بموسيقاه، وروعة الطبيعة التى منحها الله للإنسان .. كم هو عظيم سحر الجمال!!

جلس مخلص وبجواره وفاء فى مكانهما المعهود، أحس شحوب وجهها وحركاتها الفاترة،، انتابه القلق .. أراد أن يطمئن عليها فقال:

- لابد أن نعوذ الآن إلى المنزل.. يبدو عليك الأرهاق الشديد.

* قالت وفاء:

- لست مرهقة يا حبيبى.. يبدو أنها مداعبة بسيطة من ولى العهد!!

- لابد أن تستريحى.. هيا بنا.

تحاملت وفاء على مخلص ورحلا... ظلا ينتظران قدوم الوليد.. بدأت علامات الوضع على وفاء، فقد حانت الساعة السعيدة لقدوم أمنيتها.. لم يجد مخلص أمامه غير أن يأخذها لأقرب مستشفى،

وحاول كثيراً أن يتصل بأمها لكن دون جدوى... زادت حيرته وقلقه وخوفه .. تارة يحاول أن يقف أمام غرفة العمليات وتارة آخرى يحاول أن يتصل بأمها لكن لا فائدة.. ازداد قلقه فهى لم تتعود الخروج فى هذا الوقت المتأخر.. أشعل سيجارة وانطلق تجاه التليفون وقال:

ـ مساء الخير .. نعم أنا مخلص..اسمع يا عزيز أريدك أن تأتى الآن.. نعم.

مستشفى الشركة.. خير إنشاء الله. .بارك الله فيك.. نعم.. لا تتأخر.

وصل عزيز مصطحباً زوجته وقال:

ـ خير إنشاء الله.. هدأ من روعك يا صديقى.

قالت زوجته:

ـ لا تقلق غالباً ما تكون أول ولادة متعسرة ولكنها سرعان ما تمر بسلام مجرد سماع صراخ الطفل.

ـ إنها فى حالة صعبة، لقد قرر الطبيب إجراء عملية جراحية لها.

قالت زوجة عزيز محاولة أن تطمئنه:

ـ هل تتفضل بإحضار بعض الملابس والأشياء الخاصة لأجل الوليد.

ـ نعم.. نعم.

قبل أن يمشى أوقفه عزيز وراح يمشى معه وقد حاول أن يهدأ من روعه.. أثناء سيرهما

قال عزيز:

ـ ستصبح أباً يا صديقى العزيز.. مبروك.

ـ لقد اتصلت بأم وفاء، لكن يبدو أنها ليست بالمنزل وهذا ما يشغل تفكيرى أيضاً فهى لا تخرج إلا معنا، وغير ذلك أنها لم تعتد مغادرة المنزل فى مثل هذا الوقت.

ـ حسناً لا تشغل فكرك.. أذهب أنت وأحضر الحاجيات بينما سأمر عليها وسأطمئنك فور عودتك للمستشفى.

عاد مخلص إلى المستشفى وقد أحضر الحاجيات، وأخذ يسير مسرعاً عبر الممرات والطرقات تجاه غرفة العمليات حتى وصل لم يجدها، حتى الممرضات لم ير أحداً منهن.. تعبت قدماه وتملكته الحيرة، رأى إحدى الممرضات تسير على مرمى البصر أسرع إليها سائلا:

ـ معذرة .. كانت زوجتى هنا منذ حوالى نصف ساعة فى غرفة العمليات.. ألم تعرفى أين ذهبت؟ نظرت الممرضة إليه مندهشة وقالت:

ـ زوجتك؟

ـ نعم .. منذ قليل كانت فى هذه الغرفة أين ذهبت؟

ـ لا أدرى ! ربما انتقلت إلى غرفة أخرى.. لا تقلق.. من الممكن أن نبحث عنها فى قائمة الغرف والحالات العاجلة.

ذهبت الممرضة وبجوارها مخلص إلى مكتب تسجيل الحالات العاجلة.. كان بالمكتب أكثر من ممرضة يتحدثن بكلمات ناعمة

وضحكات صارخة.. انتظر مخلص بالخارج وهو ينظر إليهن، دخلت الممرضة تبحث فى السجل والقلق يتملك مخلص، بينما الممرضات تنظرن إليه ويبتسمن.

قالت أحداهن هامسة:

ـ أنظرى أنه وسيم جداً.

ـ أوه.. انظرى إلى عينيه وكذلك شعره.. كم هو جميل!

ـ يبدو أنه يحبها حباً جماً.

ـ يحب من؟

ـ زوجته. يا لحظنا التعس.. هذا ما يجب أن يكون عليه الأزواج!!

ـ محتمل أن تكون أخته، صديقته أو أمه.

بدأ صوته يرتفع.. خرجت الممرضات على أثره.. قالت إحداهن:

ـ هدأ من روعك.. لقد استلمنا منذ قليل!... انتظر .. اسمعى يا نوال لقد أخذت سها فترة إضافية اليوم.. استدعيها لى.

ـ استدعيها !! أنها كعادتها ناعسة فى أسفل المكتب.

راحت الممرضة لتأتى بزميلتها، عادت مسرعة ومعها سها تفرك عينيها وقالت:

ـ هل حدث شىء؟

ـ أين السيدة التى كانت فى غرفة العمليات منذ نصف ساعة..

أخبرته الممرضة عن الغرفة الجديدة، فذهب مخلص مسرعاً يبحث

عنها، وأخذ يصعد طابقًا تلو الأخرى حتى عثر عليها... اندفع إلى الداخل مهرولاً ونظر إلى زوجته التى نظرت إليه بسعادة؟ أخذ يعانقها ويطمئن عليها.

القلق بدأ يزول بعد أن أطمئن على زوجته وفجأة تذكر وليده... مد يديه يكشف الستار عنه، السعادة تتراقص داخله، حمل الطفل بين يديه وقال بصوت مفرح:

ـ تعال أيها الابن الجميل:

ضحكت وفاء وقالت:

ـ أنها بنت.

ـ ولد.. بنت.. كل ما يهمنى هو أنت يا حبيبى.. ما أجملها.. أنها تشبهك تماماً.

ـ أختر اسما لها.

ـ نسمة

فجأة دخل عزيز وهنئهم، أسرع مخلص إليه وتحدث معه جانبًا، فأخبره عزيز بمرض أم وفاء، فى صمت نظر إلى وفاء التى اندهشت وهى تبادله النظرات.

أرادت أن تستفسر منه.. لكنه اختلق عذراً يمكنه من مغادرة المستشفى.. تأهب مخلص للذهاب ومعه عزيز الذى أشار لزوجته جانباً وطلب منها ألا تخبر وفاء بمرض أمها.

كان عزيز قد استدعى طبيباً للكشف على أم وفاء.. أما مخلص فقد بدا على وجهه الحزن عندما صعد مسرعًا إلى غرفة الأم.. وخلفه عزيز مهرولاً .. كانت نائمة فى فراشها، وعيناها شاردتان فى أرجاء الغرفة.. لا تتحدث.. لا تتحرك غائبة تماماً عن الوعى، أمسك مخلص رأسه وبدأ يقترب منها علها تتعرف عليه، لكن دون جدوى.

ارتكز إلى أقرب كرسي ووضع وجهه بين كفيه، حاول عزيز أن يهدأ من روعه، بينما وقفت الممرضة التى أحضرها الطبيب لرعايتها، تعطى لها بعض الأدوية المقوية، ثم نظرت إلى مخلص وقالت:

ـ الأمل موجود.. قد أخذت بعض المهدئات وخلال أربع وعشرين ساعة ستظهر النتيجة .. لم يتبق أمامنا إلا الدعاء.

خرج مخلص من الغرفة والحيرة تملكته لا يدرى ماذا يفعل؟.. ماذا سيقول لوفاء؟

بينما عزيز طلب منه أن يبلغها بكل ما حدث، ربما تكون هذه هى الفرصة الأخيرة التى ترى فيها أمها.. انطلق مخلص بالسيارة إلى المستشفى، فور وصولهما أخذ عزيز زوجته، وبدأ يتأهب للذهاب بينما وقف مخلص صامتاً والوجوم على وجهه.. نظرت وفاء إليهما وقالت:

ـ خير..، لماذا تقف صامتاً هكذا؟ هل حدث شيء

نظر عزيز إلى مخلص ليحثه بأن يفهمها الحقيقة ثم أخذ زوجته وخرج..

أكملت وفاء استفسارها.. قالت:

- هل اتصلت بماما؟.. هناك شيء تخفيه عنى.. تكلم..

وقف مخلص متردداً ثم قال بصوت خفيض:

- اطمئنى .. لم يحدث شيء.. كل ما هنالك أننى أتصلت بها وأبلغتها بخبر الولادة.

- ماذا قالت لك.

- لم تستطع المجيء.. يبدو أنها متعبة قليلا.

- أنا أعرف ماما جيداً.. مهما كانت حالتها لكانت حضرت. يبدو أن هناك شيئاً تخفيه عنى.. أرجوك تكلم يا مخلص.

وقف مخلص صامتاً والحزن ملء عينيه.. بدأت الدموع تسيل من عينى وفاء التى قررت أن تترك المستشفى... احتضنت طفلتها وأخذت تتعجل مخلص للرحيل بينما راح مخلص يلملم حاجياتها.!!

* * *

٩

شاءت الأقدار أن تجعل الحزن يتسرب داخلها بعد أن امتلأ قلبها بالسعادة، أخذت تندب حظها،... أمها مازالت لا تنتبه لما يحدث حولها،.. ارتمت وفاء فى حضنها تحدثها بصوت حزين يغالبه البكاء، راح مخلص يطمئنها ويضمها بين ذراعيه ويربت عليها وينظر فى عينها وهى تتكتم أنفاسها وتختنق نبراتها... لكنها لم تستطع أن توقف رجفتها أو تخفى ضربات قلبها!!

مراراً حاول مخلص أن يخرجها وأراد أن يشغل تفكيرها.. أعطاها نسمة.. الطفلة الرضيعة، لكن وفاء أخذتها ووقفت أمام أمها التى كانت عيناها معلقتان بصورة زوجها.... بدأت تبشر أمها بطفلتها وتحثها للنظر إليها.. بدأت تتغير معالم وجهها ونظراتها العالقة على الجدران، وبدأت تنظر إلى حفيدتها... ابتسمت وحركت يداها ببطء تجاه الطفلة وأمسكت بها فى حنان... فرحت وفاء كثيراً ومالت تقبل أمها ثم راحت تبلغ مخلص.. جرى مخلص تجاهها ونظر إلى وجهها المبتسم.. أخذت وفاء طفلتها وأحتضنتها، بينما خرج مخلص والممرضة يبلغان الطبيب

بتحسن حالتها.. أثناء حديثهما سمعا صرخة دوت في أرجاء المنزل.. جريا سريعاً وجدا وفاء تحتضن أمها.. أخذ وفاء والطفلة وأخرجهما من الغرفة ثم أسرع إلى غرفة الأم..كانت نائمة يرتسم على وجهها الابتسام.. مد يده وأسبل عينيها وسحب الغطاء فوقها.. تحجرت الدموع في عينيه، تراجع بهدوء خارجًا، وأخذ يهدئ من وفاء بأن أعطاها قرصًا منومًا حتى نامت في سريرها التي اعتادت أن تنام عليه في صغرها، حمل طفلته بين ذراعيه وظل يمشي في أرجاء الغرفة ثم جلس بعد أن تملكه التعب الشديد، وظل ينظر إلى ابنته التي نامت على يديه، فوضعها بجوار أمها.

غريب أيها القدر السعيد التعس.. في اللحظة التي ترى الأم فيها حفيدتها تلفظ أخر أنفاسها، وفي اللحظة التي تسعد بها وفاء بقدوم أول طفلة لها تفقد أمها، وغريب أن أظل مكتوفي اليدين.. تجمعت كل الظروف العسيرة في لحظة واحدة.. لا أريد أن أبلغ أحداً في هذه الساعة المتأخرة.

سرعان ماتمت مراسم العزاء وذهب الجميع وخلا المكان.. الحزن يملأ قلب وفاء والدموع تنهمر من عينيها .. ربت مخلص عليها ثم احتضنها محاولا أن يجفف دموعها.

* قالت وفاء

- لابد أن نعيش هنا..

لا أستطيع أن أترك المكان

ربت مخلص عليها وقال:

ــ غدا سأذهب إلى منزلنا وأحضر أحتياجاتنا لنعيش هنا.

صارت وفاء شاردة الذهن والصمت سكن لسانها.. دائما تنظر إلى صورة أمها... أراد مخلص أن يخرجها من عزلتها، طلب منها الذهاب معه إلى مدينة الأسكندرية لإنجاز بعض الأعمال هناك.. بالفعل نجح أن يخرجها من عزلتها..كانت تتحسن يوماً بعد الآخر بفضل المرح والنزهات... عرف مخلص كيف يتغلب على الحزن الساكن فيها.. فالنعمة التى وهبها الله للناس فى القدرة على النسيان كفيلة أن تعيد الأمل والسعادة.... الهواء والماء وغروب الشمس رالطبيعة الساحرة لهم القدرة فى تغيير أشياء كثيرة.. تجددت السعادة وعاد العالم يرف بالجمال وها هما يذوبان ثانية روحاً واحدة وجسداً واحداً.. لك القدرة العظيمة يا الله على أن تجعلنا ننسى ونتناسى.. أن نعرف سر هذا الجمال الذى يعطينا أملا متجددا وحياة هانئة.

عاد مخلص بعد أن قضى وقتاً طيباً وهدأت أحزان وفاء، وأنشغلت فى ترتيب (الفيلا)... اهتمت كثيراً بحديقة المنزل التى كانت ستذبل. بدأ مخلص يزاول عمله منشغلاً تماماً بتنفيذ المشروع، صار يجلس فترات طويلة فى عمله.. لكن دون أن ينسى أن يأخذ وفاء نزهتهما المعتادة إلى حديقة الأحلام التى تجدد نشاطهما.

* * *

١٠

بالرغم من انشغال مخلص مع مهندسى التنفيذ بالمساحة الشاسعة الجرداء والتى بدأوا ينفذون عليها مشروع أبراج المدينة وسط الطقس الحار، إلا أنه وجد راحة كبيرة وسعادة وفيرة تملأن قلبه.. نال إعجاب وتقدير كل من يعمل فى هذا المشروع بحبه وتشجيعه لهم.. كان يساعد كثيراً من العمال فى حل مشاكلهم باثًا فيهم العزيمة والإرادة القوية من أجل هذا البناء الضخم الذى سيصبح مشروعاً قومياًوانسانياً.

ذات يوم كان مخلص يتابع تنفيذ العمليات.. توقفت سيارة فخمة نزل شحاته بك وسأل عنه ، أوصله أحد المهندسين إليه.. أخذ شحاته بك يعانقه ويتمنى له التوفيق ثم قال:

ـ عندما تفرغ من عملك أريد أن تأتى إلى فى مكتبى لنشرب القهوة معاً.

* قال مخلص بهدوء:

ـ هل هناك مانع أن تشرب أنت القهوة هنا.. لا بد أن هناك ما يشغل تفكيرك يا شحاته بك.

ـ بل أردت ألا أشغل وقتك هنا فى مجال العمل.. سأنتظرك بعد أن تنتهى من عملك اليوم.

ودعه مخلص بابتسامة حين لوح له بيديه منصرفًا.. انطلقت السيارة واختفت.. فى نفس اللحظة جاء الأستاذ سيد.. تنبه مخلص لقدومه وأخذ يرحب به، طلب منه الحضور لحفل تقيمه السيدة ليزا.. واعتبره أول مدعو للحفل.. اعتذر مخلص نظراً لانشغاله، فأخذ سيد يحدثه عن اهتمام السيدة ليزا به وإعجابها الشديد بأفعاله وعن المودة التى تكنها له.. نظر إليه مندهشًا يشكره على هذه الكلمات وقد أراد أن يعتذر للمرة الثانية.. و قبل أن يتحدث قال سيد:

ـ لاتقل أى شىء.. فقط تلبى الدعوة للحفل.. أنا كما قلت لك أنها مهتمة جداً بك وأعتقد أنها تضعك فى مكانة خاصة.

بدأ يحدث مخلص عن ثراءها، وقدر الحب والإعجاب التى تكنه له.. أراد أن أن يشغل فكره فى مفاتنها ويقنعه بأنها ستصبح طوع امره فى حالة أن يشغل عقله، لكن مخلص طلب منه أن يعتذر لها .. وجد سيد كلماته بلا فائدة فطلب منه أن يعتذر بنفسه كما قالت له السيدة ليزا إذا أراد أن ـ يعتذر فعليه أن يقدم اعتذاره بنفسه.

عاد مخلص يتفكر، الأمر وقد تبادرت تساؤلات عديدة إلى ذهنه

.. (ماذا تريد منه؟ والأشياء التى يحكى عنها هذا السيد الذى ترك مبادئه وطموحاته رغبة فى الثراء.. هناك شىء غريب يحدث..

ما هو؟ لا أعرف.. منذ قليل شحاته بك! والآن ليزا..لا أعرف ماذا يريدان!!)

اتصل مخلص بزوجته واعتذر عن الحضور فى موعده وأخذ يتأهب للذهاب حتى وصل مكتب شحاته بك، وما أن دخل استقبلته السكرتيرة الخاصة بشحاته بك وقالت بدلال:

ـ مخلص بك.. اتفضل.. شحاته بك ينتظرك بالداخل.

دخل مخلص، استقبله شحاته بك بالترحاب.. نظر مخلص إلى غرفة المكتب فقد كانت مجهزة بأحدث وسائل العصر.. أشار إليه شحاته بك بالجلوس، أخرج مخلص (سيجارة) أسرعت السكرتيرة بإشعالها له وهى تمعن النظر فى عينيه.. تملك نفسه وقد أحس أن هناك شيئاً ما، بدأ يتعامل بطريقتهم حتى يعرف الغرض الذى يريدونه، جذب نفساً عميقاً من سيجارته ثم نظر إلى السكرتيرة وابتسم لهما بينما أشار إليها شحاته بك أن تحضر لهم بعض المشروبات، بدأت تفتح (البوفيه) الموجود داخل المكتب وعينيها تشاغل نظرات مخلص... أشار إليها شحاته أن تخرج وقال:

ـ لا أريد أن يدخل أحد الأن.. أى مندوب يأتى ينتظر.. هل تفهمين؟! ابتسمت وخرجت تتثنى بقوامها المشوق... أراد مخلص أن يعرف ماذا يريد شحاته بك؟ .. الذى بدأ يشرح له وجهة نظره بأنه تعب كثيراً حتى وصل إلى هذه المكانة.. وكيف بدأت الشركات الأخرى تعتمد على الخامات البنائية التى يستوردها لهم وقد اعتمدت هذه العملية (أبراج المدينة) بنسبة كبيرة.

ابتسم مخلص وقال:

ـ هذا إنجاز عظيم.. لكن ماعلاقتى بهذه الأشياء؟

ـ لك علاقة وثيقة جداً يا أستاذ مخلص.. أنت تعرف مدى التأخير الذى تسببه بعض الجهات مثلا الإجراءات الروتينية.. التخليصات الجمركية.. هذا فضلاً عن تأخير الجهات المصدرة فى إرسال الخامات إلينا، كل هذه الأشياء تتطلب منا مجهوداً وعناء حتى تصل إليكم.. وهذا ما يحير فكرى الآن.

ـ كيف

ـ إذا تأخرت الخامات البنائية أو استغرقت وقتاً فى الجمارك ربما لا يتم تنفيذ المشروع فى ميعاده، وأنت كما تعرف نحن رجال الأعمال معظم تعاملنا (بيزنيس) الصفقة تبدأ بميعادوتنهى بميعاد.. ولذلك قد وضعنا شروطاً مع الجهة الرسمية تلزم بالتسليم المبكر وأنت تعلم جيداً ميعاد التسليم!!

*قال مخلص:

ـ سأبذل قصارى جهدى لتسليم المشروع فى موعده المحدد إن شاء الله.

ضحك شحاته بك وشرب كوباً من عصير الفواكه دفعة واحدة، وبدأ يحاول إفهام مخلص.. أن طموحه وعزيمته وحدهما ليست كافية لإنهاء المشروع، المهم بقية المساهمين أيضاً فى المشروع، فجميعهم يمرون بنفس المشكلة.. أراد مخلص أن يتفهم الأمور بطريقة واضحة..

وقف شحاته بك واستدار حول الكرسى الذى يجلس عليه مخلص وبدأ يكشف عما بداخله....

ـ أنت بوضعك مسئول استشارى لمهندسى التنفيذ فى المشروع.. ستتفهم الأمر جيداً.. هناك خامات فى نفس جودة الخامات التى سننتظرها كثيرا وهى بنفس المقايسات والمواصفات المطلوبة، وأنا باقترح باستبدال هذه الخامات إذا تأخرت عن الموعد المحدد.. هذا أقتراح يا أستاذ مخلص، أنا بوصفى مساهم فى هذا المشروع قد أبلغتك.

أستدار شحاته بك إلى الجانب الآخر، وظل يهمس فى أذن مخلص ليسأله عن رأيه بينما جلس مخلص مندهشاً، وحاول أن يجد لنفسه مخرجاً، لأول مرة يتعرض مخلص لمثل هذا الموقف.. يجب أن يصبح طرفا وقد طرأ فى ذهنه أن يترك المشروع.. ولكنه كان يعلم جيدا أن الوصول إلى تحقيق النجاح يحتاج إلى جهد شاق ووقت كبير.. أحس شحاته بعدم القبول من مخلص الذى أقنعه أن ينتظر حتى تأتى الخامات من الخارج أو الاعتماد على خامات بعض الشركات المساهمة إلى أن تأتى المواد البنائية لدى شحاته بك، وكذلك مع الشركات المساهمة الأخرى سيأخذ منهم الخامات التى ستجىء أولا وهكذا يتم التنفيذ... وجد شحاته طريقة أخرى يساوم بها مخلص فعرض عليه مبالغ هائلة، وحاول أن يقنعه بأن معظم المشاريع التى ساهم فيها كانت تتم بهذه الطريقة ثم ربت على كتف مخلص واستدار يضحك، لكن مخلص حاول ألا يندفع فتكتم أنفاسه وقام، ولكن شحاته بك أوقفه وقال:

ـ اتفقنا يا مخلص بك:

ـ يبدو أننا لن نتفق أبداً.

خرج مخلص غاضبًا من مكتب شحاته بك.. كانت السكرتيرة تجلس فى الخارج تحدق فى مرآتها وما أن رأته، أرادت أن توقفه، ولكنه اندفع خارجاً سعيداً بعدم قبوله عرض شحاته بك!!.

عاد مخلص إلى منزله.. وجد زوجته تقرأ المجلات وتستمع إلى الموسيقى، لم تنتبه لدخوله فقد فاجئها بقدومه، وأخذ يداعبها وبدأ يفهمها موقفه مع بعض العملاءالمساهمين فى المشروع.. كانت وفاء تستمع إليه وتستغرب كلماته وتحاول أن تؤيد صموده أمام هذه الصعوبات من المنتفعين والجشعين.

كان هانئاً بحياته الوردية وزوجته المثالية التى تحقق له الواقع الحالم الطموح الذى يحلم به.. أراد مخلص أن يحقق عالماً خاصاً به بعيدا عن الحياة التى يراها فى تعاملة مع الاخرين، أنه يخشاهم حتىٰ وهم يحملون الهدايا.. كل أمنيته أن يعيش فى عالم وفاء الوردى ويفيد الواقع المحيط بأعماله الصالحة النافعة محققاً طموحاته.

ذهب مخلص إلى الحفلة، وقد استقبلته ليزا بحفاوة بالغة، وقدمت له بعض المشروبات بطريقة خاصة جداً.. أحس مخلص أنها تريد أن تنفرد به فأخذ يتلفت يميناً ويساراً.. وجد أغلبية المدعويين من مهندسى المشروع وبينهم شحاته بك وسيد سكرتير ليزا وبعض الشخصيات الهامة... كالعادة لم يختلف الأمر كثيراً الشخصيات هى الشخصيات كل ما تغيرت هى الأزياء وأربطة العنق... أمسكت ليزا مخلص من يده

وخرجت بـه تجاه الشرفة، وبدأت تنظر إليه بعين ناعسة، وتتحدث إليه بطريقة هامسة.. تشكره على حضوره الحفل وانها أقامت هذه الحفلة خصيصاً له.. ارتبك مخلص وقال بخجل:

ـ شكراً يا...

ـ يا ماذا؟

ابتسم محاولاً الابتعاد، اقتربت منه مرددة كلماتها بدلال..، بينما أخرج منديلا يجفف عرقه الغزير ثم أخرج (علبة سجائر) وأمسك (ولاعته) وضعت ليزا يدها على (الولاعة) وأخذت تداعب أصابعه ثم اشعلت له (السيجارة) وضحكت ثم قالت بدلال:

ـ ليزا.. ليزا فقط يمكنك أن تناديني به.

أراد مخلص أن يغير الحديث فبدأ يتحدث عن الأبراج السكنية.. لكنها لم تبدى أية اهتمام.. كل ما كان يشغل فكرها.. التقرب منه.. بدأت تتمايل مع صوت الموسيقى الهادئة الذى يصدر من الداخل، لكن مخلص تراجع وقال..

ـ هل تواجهون صعوبة فى استلام الخامات والمواد البنائية عند استيرادها من الخارج؟

ـ من جهتى لم تواجهنى أية مشكلة حتى الآن.. أما الآخرون فلا أدرى!!

ـ معنى هذا إنك ستسلمين المواد البنائية والخامات فى موعدها؟

ـ هذا يتوقف عليك!! أقصد سرعة تنفيذك.. اعتقد أنك ذكى تستطيع أن تفهمنى سريعاً.

بدأت تتمايل مع أنغام الموسيقى.. طلبت أن يرقص معها.. أمسكت يديه ونظرت فى عينيه.. وهو قد حوصر تماماً وكأنه وقع تحت تأثير سحرى... كانت الموسيقى هادئة، وضعت ليزا رأسها على كتفه ويداها تداعب عنقه وشعر رأسه، ظلت تنظر إليه نظرات ناعسة واقتربت شفتاها من شفتيه بشدة.. لا يدرى مخلص ماذا يفعل؟

بدأ ينتبه شيئاً فشيئاً ثم ابتعد عنها، اقتربت منه وعانقته.. قالت:

ـ مخلص.. أنت الإنسان الوحيد الذى ارتاح قلبى إليه.. نعم.. إنى أحبك.. أرجوك اقترب أكثر واطفى لهيب قلبى.. لا أستطيع أن أتركك دون أن تعرف مشاعرى تجاهك.. سوف أفعل لك كل ما تريد، لكن لابد أن تبقى بجوارى.. سنكون أسعد أثنين وسنذهب إلى جميع أنحاء العالم ننعم به.

ابتعد مخلص عنها واشعل (سيجارة) وهى تلاحقه مرددة نفس الكلمات..

قال مخلص مقاطعاً:

ـ ارجوك يا فندم.. أنا لا أستطيع...

ـ كلا.. تستطيع أن تعيش حياتك التى تحلم بها.. تستطيع أن تحقق آمالك وطموحاتك.. سأعطيك مالا وحباً وحناناً.

ـ لا أريد كل هذا.. أريد أن أعيش حياتى.. هل تفهمين؟

ـ حياتك هى حياتى.

ازداد توتر مخلص بينما ظلت ليزا تطارده بجمالها وأنوثتها، ولكن لم يأبه بتصرفاتها، ازدادت ليزا ولعًا به فهو الوحيد الذى لم يرضخ لها.. فهو بالنسبة لها طراز مختلف عن بقية الآخرين...

بذلت قصارى جهدها كى تنال إعجابه.. دون جدوى، بدأتِ تطلب منه بأنها لا تريد سوى حبه فقط.. فهى تعلم أنه متزوج، حاولت أن تقنعه أن الحب ليست نهايته الزواج بل ستظل صديقة، محبة له بعيداً عن القيود والارتباطات، بدأ مخلص يتأهب للخروج لكنها أوقفته وبدأت تؤنبه بأنه كالصخر لا يشعر بها وتتوسله ألا يتركها، لم ينتبه لكلماتها ومشى تاركاً المكان وما فيه بعيداً عن الاختناق الرهيب الذى يشعر به فى هذا المكان.

أثناء سيره بدأت صورة ليزا تتبادر فى ذهنه وتطارده بكلماتها المعسولة فى مرآة سيارته، أوقف السيارة وأشعل (سيجارة) يتذكر كلماته لزوجته، وحبها التى لا يضاهيه أى حب فى العالم، فتذكر أيامهما الجميلة، تبادر إلى ذهنه عدة تساؤلات...

ـ ماذا تريد منى؟ هل تتحدث عن الحب حقًا أم أنها تعقد صفقة مثلما فعل شحاته بك؟ كلا.. لا أريد أن أصبح مثلهم.. لن أخضع عواطفى وقلبى إلا لحبيبة قلبى وفاء.. لا أريد أن أشارككم حياتكم الملعونة.. لا أريد أن يتبدل دمى.. حتى لو نفذ منى فلن يخطر فى

عـقلى لحظـة واحـدة أن أتـقـدم إليكم.. لن أبيـعك يا قلبى مـقـابل ثروات العالم بعد أن أصبحت طوع قلبك يا حبيبتى.

لقد خـانتنى أحاسيسى اليوم عندما رأيتك أيتـها الملعونة.. لا.. لست أنا الذى يـستطيع أن يـسامـرك ويستـمع الى ضـحكاتك الفـاجـرة.. إن وعدك أيتـها الملعونة أعرفه جيداً فهو يكتب فى الهواء وعلى سطح الماء وسرعان ما يتطاير!!..

وأعرف جيدا أن الصداقة الحقيقية تصير بين الطيبين فقط!!

* * *

١١

الظلام دامس والوقت متأخر، القلق يساور وفاء التى وقفت تنتظر حبيبها من النافذة.. عاد مخلص وكان متعباً مكدوداً، استقبلته وفاء بابتسامتها المريحة،راحت تتلمس يديه وتنظر فى عينيه وكأنها تعوض فترات غيابه عنها، نظر إليها.. عانقها وحملها بين ذراعيه صاعداً إلى غرفة أحلامهما، وضعها على البساط الوردى وهى تداعبه بضحكاتها الرقيقة... شعر مخلص بعد عناء اليوم بسعادة، عادت نبضات القلب تصدر موسيقاها، تشابكت أياديهما، اقتربت عيونهما... راح يتذكر ليزا - ونظراتها إليه ولمسات يديها ودلال صوتها وكلماتها المعسولة.. إن كل تصرفاتها يرفضها عقله ويلفظها قلبه .. بل كله.. ثم بدأ يتأمل وفاء....

جميل أن تلتقى الروح بتوأمها يذوبان، يمتزجان... الآن عرفت كيف تذوب الأشواق.. كنت أعرف أن الإنسان بداخله ملاك وشيطان.. عندما يحب، يكون بداخله الملاك، وعندما يشتهى يكون بداخله الشيطان.

استحلفك يا عينى ألا ترين غير مدينتك الجميلة فى عيون حبيبتك الملونة..

لقد فاضت وفاء بسحرها وعبيرها بشلالات تتحدى جمال العالم لتصير الجمال نفسه.. أراد مخلص أن يعتذر عن تكملة تنفيذ المشروع من جراء المطاردات والمساومات التى تعرض عليه، لكن وجود وفاء بجواره أزال عقبات كثيرة، وأيقظ طموحه. وأمله وجعله يسير نحو العالم الذى تمناه.

ارتاح قلب وفاء وهدأ تفكير مخلص.. لكن ليزا لن يهدأ لها بال.... رمت حيلها فى فكر الآخرين ليزدادوا حقداً.. اجتماعات واحتفالات مع شحاته بك وغيره من المساهمين الذين يقومون بتنفيذ المشروع.. كانت ليزا تفهم جيداً عقلية سيد سكرتيرها الخاص، وتعرف كيف تجعله أن يفعل ما تريد..

كان مخلص منشغلاً بمتابعة مهندسى التنفيذ، وتقارير العمل اليومية عن المشروع، وفى نفس الوقت كانت معظم القطاعات المساهمة، وأتباعها يلاحقون مخلص ببعض الموضوعات الاستشارية والإدارية والمعمارية الذى تبعده عن المباشرة الفعلية لميدان العمل.

ومع كل إشراقة شمس كان مخلص ينظر إلى الصرح الهائل الذى يبنى، وينظر الى كل طابق يعلو تزداد فرحته ويشمخ طموحه.. فقد تم الانتهاء من أول برج عملاق من مشروع (أبراج المدينة)... الصحافة والأعلام تتبعوا المشروع وذاع صيته عن قيمته فى حل المشاكل

السكانية والاقتصادية... بدأ العمال ومهندسو التنفيذ العمل فى البرج الثانى.. انشغل مخلص بالاستشارات الكثيرة حول إنهاء خامات بناء «التشطيب» للبرج الأول من إنهاء الأبواب والصيانات وغيرها من الخامات حتى أصبحت غاية فى الجمال..

الريبة استحوذت فكره، فمعظم المواد المعمارية توجد بكثرة على عكس قول المساهمين، لكنه لم يهتم كثيراً.. صبرت وفاء كثيراً لبعد حبيبها فهى لا تراه إلا متأخراً .. كانت تنتزع ارهاقه وتوفر له الراحة حتى تجدد نشاطه فى العمل.. سهرت على راحته كثيراً.. كان كل مايهمها أن ينجز مخلص مشروعه ويحقق ما تمناه.

مرت الأيام وثمرات الجهد تنبت وتصل إلى ذروة النجاح.. تم الانتهاء من الصرح العملاق الثانى لمشروع (أبراج المدينة).. صرحان تستطيع من خلالهما أن ترى العالم بكامله.

بدأ القسم الثانى من المشروع، وبدأت تتأخر المواد المعمارية من القطاعات المساهمة.. فكانت تصل على فترات بعيدة.

أخذ مخلص أجازة يستريح فيها حتى تأتى بقية المواد المعمارية، وذهبت وفاء معه إلى أحد المصايف يعاودان عالمهما.. حيث البحر والهواء والشمس والطبيعة الساحرة.. عادت كل لغات الحب ثانية ترسل حوارها الحالم فى أعماق الوجدان، ليعاود القلب بهجته وسعادته، وترسل العصافير زقزقتها وتتناغم وتتلاطم أمواج البحر، وتتمايل

الاشجار طوع نسمات الهواء، ترسل عبيراً وأشواقًا لتشدوا الطبيعة به مغنية أناشيد العشاق.

ذات يوم اتصل أحد المهندسين وطلب من مخلص العودة فى أسرع وقت لأمر هام.. لم يهتم مخلص كثيراً، بعد ساعات قليلة جاءت إليه مكالمة هاتفية من شحاته بك.. ترك مخلص (سماعة التليفون).. الوجوم ملأ وجهه وقد تغيرت ملامحه تمامًا، أخذ يرتدى ملابسه مرتبكاً، أرادت وفاء أن تعرف ماذا حدث؟

طوال الطريق والسيجارة لم تفارق مبسمه، ظلت وفاء تسأل عن ما يساوره، وعلى مرمى بعيد من البصر نظر مخلص على البرجين، لم يجد إلا برجاً واحد.. سار غير مصدق إلى أن اقترب.. وجد سيارات - الشرطة ومجموعة من الناس تقف حول الصرح المنهار!!.. وقف مذهولا لا يرى أمامه إلا سراب.. تهاوى ساقطاً على الأرض بينما خرجت وفاء من سيارتها وتركت نسمة طفلتها بالداخل .. راحت تطمئن على زوجها، وجدت زحام شديد.. أخذت تمر بينهم وجدت مخلص راقداً ممدداً على الأرض.. صرخت.. وصرخاتها ضاعت وسط أصوات الزحام.. سالت الدموع من عينيها وهى تحتضنه محاولة أن تنقله....

قال أحد الضباط:

ـ من هذا؟

أجاب أحد المهندسين:

ـ إنه مخلص بك مهندس التنفيذ والمسئول الاستشارى.

تداخلت الأصوات وتكدست الصحافة وضاع صوت وفاء.، نادت على أحدهم أن ينقله إلى أقرب مستشفى لم تستطع وفاء أن ترى زوجها ممدداً.. انهارت وسط الواقفين.. على الفور نقل مخلص إلى المستشفى وسط حراسة مشددة، وتم استدعاء جميع من يعملون فى المشروع.

فجأة انتبهت وفاء وتأملت الغرفة.. وقالت بصوت مختنق:

ـ أين أنا؟

قالت الممرضة بهدوء:

ـ أرجوك لا داعى للقلق.. إنك بخير.

ـ مخلص.. أين زوجى؟

لم تفهم الممرضة ماذا تعنى ولكنها أجابت عليها قائلة:

ـ إنه بخير.

فجأة صرخت وفاء، وأخذت تجرى وهى تردد اسم ابنتها نسمة.. حاولت الممرضة أن تمنعها من الخروج، ولكنها اندفعت سريعًا وظلت تجرى فى الشوارع حتى وصلت إلى المكان المشئوم التى أوقفت به السيارة.. فتحت باب السيارة وجدت نسمة نائمة فى مكانها.. ضمتها إلى صدرها والدموع تسيل من عينيها.. فتحت الطفلة عينيها وابتسمت فى وجه أمها التى غطت الدموع وجهها.. انطلقت وفاء مسرعة حتى وصلت إلى منزلها.، حاولت أن تتصل بعزيز الذى أتى إليها وعرف ما حدث.. تركت نسمة.. مع زوجته وذهب عزيز معها إلى المستشفى غير مصدق.

كان الشرطي يقف على باب الغرفة.. منعهما من الدخول ولكن بعد أن عرف أنها زوجته أدخلها.. وجدت الممرضة تضع بعض مخفضات الحرارة حول رأسه، كان مخلص يهذى بكلمات.. (لا يمكن.. مستحيل.. هناك خطأ.. وفاء.. المشروع.. نسمة.. مستحيل).

ظلت وفاء جالسة بجواره.. في ذلك الوقت أحضر عزيز تصريحاً ودخل متلهفاً ليطمئن على صديقه.. كان الأسى بادياً عليه جراء تلك الكارثة التي حلت به.. وقف أمام وفاء وقال:

ـ أذهبي استريحي مع زوجتي وابنتك وسأجلس بجواره.

ـ كلا لا أستطيع أن أتركه هكذا.. تفضل أنت.. يمكنك أن تذهب حتى لا تقلق زوجتك.

ـ أطمئني.. إنه بخير.

أرادت وفاء أن تستفسر عما حدث، اكن عزيز أثناء استخراجه للتصريح لم يعرف التفاصيل كاملة.. كل ما عرفه أنها ليست حادثة.. لا توجد آثار مفرقعات بل بسبب التصدعات، وأن النيابة مازالت تحقق مع بقية زملائه.

ظلت وفاء تنتظر.. كان الارهاق الشديد قد ارتسم على وجهها.. كل لحظة تمر تحاول أن تقاوم، لكن عزيز أقنعها أن تواجدها الآن ليس له أية فائدة، ولابد أن تذهب لأجل طفلتها وتستريح حتى الصباح.. تحاملت وفاء على عزيز ورحلا إلى منزله.. ما أن وصلا دخلت وفاء متعبة لتنام بجوار طفلتها، بينما ظل عزيز جالساً يشعل سيجارة تلو الأخرى حتى أغمض التعب عينيه.

* * *

١٢

استيقظت وفاء على صوت ضجيج السيارات، وأيقظت زوجة عزيز وأوصتها بطفلتها، بينما استيقظ عزيز على صوتها.. على الفور انطلق مع وفاء حتى وصلا المستشفى ودخلا غرفة مخلص .. علما بمغادرته المستشفى.

أسرعت وفاء إلى النيابة، لكنها لم تتمكن من الدخول. طلبت من عزيز أن يبحث عن محام ووقفت تنتظر خروج مخلص من التحقيق .. انفرج باب المكتب وسط حراسة مشددة، خرج مخلص وهو ينظر إليها صامتاً وعينيه اللتين تعرفهما وفاء جيداً تفهمانها .. أنه ليس مسئولا عن هذه الكارثة مشت وراءه والدموع تسيل من عينيها وقالت :

ـ أعرف أنك برىء .. أطمئن سوف يأتى المحامى فوراً.

كان عزيز قد أتصل بالمحامى، وعاد ليجد وفاء تقف فى حالة سيئة.. أثناء مغادرة مخلص لها وسط حراسة رجال الشرطة، حاولت أن تجرى وراءه فأمسكها عزيز وهى تصرخ بصوت مختنق حتى

اختفت السيارة. حاول عزيز أن يهدأ من روعها، أخذها وعادا إلى المنزل .. أخذت طفلتها وعادت إلى منزلها يائسة تحمل ابنتها وأوصدت عليها باب المنزل، وأخذت تطعم ابنتها والدموع لا تفارق عينيها، الصمت يخيم على المنزل .. أنها تعلم جيداً أن زوجها قد ظلم، ولكن ليس فى استطاعتها أن تفعل شيئاً، لا تجد من تتحدث إليه.. تشكو إليه سوى الجدران والصمت الفظيع.. تصرخ، لا أحد يسمعها غير الأشياء الجامدة التى تحيط بها، ويالها من جدران صماء... الملل يقتلها والثوانى تمر ساعات .. الأشياء تبدو على غير عادتها .. كل الأشياء تبدو كئيبة .. لم يهدأ لها بال، النوم قد فارق جفنيها .. الكلمات قذائف تناور البقية الباقية فى أفكارها، أصوات تتداخل تشجب نداءات القلب فتختنق المعانى .. كل ما كان يطرأ بخاطرها.. ماذا ستفعل؟ بغتة رن (جرس التليفون) راحت تجيب وقد سمعت صوت عزيز:

ـ مساء الخير ..

ـ ....

ـ لقد ذهبت اليوم إلى الأستاذ محمود المحامى وتحدثت معه فى قضية مخلص .. وقال لى أنه سيذهب غدا إليه ليعرف التفاصيل كاملة.

قالت وفاء بأستفسار :

ـ هل تعتقد أن هنالك أملاً؟ هل تعتقد أنه سيفعل شيئاً تجاه ..... صديقك .. بدأت الدموع تنهمر من عينيها بينما طلب عزيز منها أن

تهدأ وسيعود زوجها إليها إن شاء الله، وقبل أن ينتهى من مكالمته .. قالت:

ـ أستاذ عزيز .. لابد أن أرى مخلص ضرورى.

ـ سأمر على المحامى باكر وسأطلب منه أن يأتى إليك بتصريح لزيارته.

ـ ضرورى ... لا تنسى سأنتظر.

جلست تنتظر ..علّ (جرس التليفون) يدق أو يطرق أحد بابها الموصود .. الساعات تمر القلق والحيرة والأنتظار يقتلونها .. بغتة سمعت طرقًا على الباب جرت ... وجدت عزيز وبجواره فتاة قد أحضرها لتقوم برعاية ابنتها وتسهر على راحتها وتقوم برعاية المنزل، أحضر لها أيضًا تصريحًا لزيارة مخلص، أسرعت.. وما أن وصلت وجدته جالساً واضعاً رأسه بين يديه. تراجعت الدموع من عينيها، وارتسمت الابتسامة على وجهها، وجرت تجاهه، وأخذت تعانقه وقالت:

ـ إن شاء الله ستعود إلينا سريعاً.

ربت مخلص على كتفها وسأل :

ـ كيف حال ابنتنا؟

ـ بخير المهم أنت ..!!

ـ وأنت؟ هل ..

بدأت الدموع تسيل من عينيها .. وضع مخلص يديه على وجهها وأخذ يكفكف دموعها ..

ـ أننى أنتظرك يا حبيبى.

ـ أرجوك لا تزيدين أحزانى إن دموعك تحرق قلبى .. لا أستطيع أن أراك هكذا .. أنا لا يهمنى أى شىء فى العالم غيرك أنت .. أنت تفهمين الحقيقة جيداً.

ـ أعرفها يا مخلص دون أن تنطق بها، ستظهر قريباً وتعود إلينا.

ـ ليس هذا ما يؤرقنى .. التصميمات والتنفيذ على أتم وجه ورغم هذا ينهار كل شىء .. كيف؟ معنى هذا أن كل ما فعلته كان سراباً فى سراب.

ـ كيف يا مخلص؟ .. قد نال تصميمك إعجاب الجميع .. الخطأ ليس منك وهذا لا يعنى أنك تحمل اللوم على تصميمك.

قال مخلص بانفعال :

ـ قد عاينت معظم المواد المعمارية، وقدمت كل التقارير التى تفيد صلاحيتها، برغم ذلك ينهار المشروع .. من المؤكد أن هناك خطأ ..

ـ هنالك أخطاء كثيرة لكنها ليست من أفعالك!!!

حاولت وفاء أن تخرج مخلص من إحباطه واكتئابه، فأخذت تغرس فيه الأمل والعزيمة، أخبرته أن المحامى مهتم بهذه القضية وأن أصدقاءه يبذلون قصارى جهدهم لمعرفة ما حدث .. دخل الشرطى ينبهما بأنتهاء الزيارة .. تراجعت وفاء والدموع تفر من عينيها وقالت :

ـ الفرج قريب يا حبيبى.

بدأ الحارس يوصد الباب الذى يحجب الأمل فى عيون مخلص، وابتعدت وفاء شيئاً فشيئاً إلى أن اختفت تماماً عائدة تنتظر الأمل الذى يعيد لها النور!

عادت وفاء إلى منزلها، وقد تركت القوة والعزيمة بعد أن تخطت غرفة الحجز، بالرغم من إرهاقها كانت تبدو أمام مخلص قوية صلبة ترسل من عينيها فيضانات من الأمل لأجل ألا يضعف .. عادت والانتظار مال يقتل وحدتها.. جلست وحيدة، أحست أن الأشجار التى أحاطت المنزل لم تعد تسمع حفيفها، العصافير لم تعد تغنى حتى الماء لم تعد تسمع خريرة .. جمود، أصبحت لاتشعر إلا بكل ماهو صامت حولها .. لاتستطيع أن تفك قيود الصمت والارهاق، لا تستطيع أن تنزع الستارة الداكنة التى حجبت عنها محبوبها... الشىء الذى يشعرها أنها مازالت باقية هى ابنتها نسمة .... رقدت وفاء يائسة واستدعت المربية طبيباً.. عرفت منه أن وفاء فى حالة «حمل» ويجب أن تستريح تماماً ولا تجهد نفسها، حتى تقاوم المرض...

تحاملت على نفسها، وبدأت تحبو فى عتامة الأشياء علها تجد بصيصًا من النور، بالفعل استطاعت أن تخرج من هذه الظلمة لتحافظ على نسمه وعلى الذى لم ير النور بعد .. استعادت نشاطها ثانية وأبلغت مخلص بقدوم مولود سيأتى قريبًا .. ازداد إصرار مخلص أن يخرج سريعًا من خلف هذه القضبان ... ظلت وفاء تنتظر انتهاء اجراءات التحقيق، لكن المدة طالت، ولم يعد إليها حبيبها.. ظلت تقاوم وحدتها ومعاناتها إلى أن أبلغها الأستاذ محمود المحامى أن الأمر قد حول إلى القضاء.

* * *



حشد كبير من رجال الصحافة والأعلام يملأون قاعة المحكمة .. جلست وفاء بجوار عزيز ومؤنس .. مذهولاً كان مخلص فى قفص الأتهام .. لم تبرح عيناه زوجته القلقة، بينما مصورو الصحافة بدأوا يمارسون هوايتهم بالتقاط الصور لمخلص.

دخلت هيئة القضاء، والصمت خيم على القاعة .. كانت وفاء لاتسمع إلا أنفاس وضربات قلب مخلص.. دوى صوت الحاجب فى أرجاء القاعة.

نظر مخلص إلى هيئة القضاء ... كان القاضى يبدو صارماً غليظاً غير محدد الملامح، المستشاران ضئيلا الحجم يتميز شعرهما باللون الرمادى ذو وجهين باسمين، ممثل العدالة طويل القامة صارم الوجه .... كان ينظر إليهم ويفرك عينيه وكأنه فى حلم، كان يرى الشفاه تتحرك والأصوات بعيدة .. المناظر كلها تبدو باهتة، انتبه مخلص على صرخة صوت ...

ـ كذب أنه مظلوم .. لم يفعل هذه الأعمال الشنيعة .. كذب ..

حاول عزيز ومؤنس أن يهدئا من روع وفاء بينما طرق القاضى على المنضدة .. قال :

ـ مرة ثانية ستخرجين من هذه القاعة.. النيابة تواصل مرافعتها.

وقف المدعى فى شموخ وقال بصوت جهورى :

ـ سيدى القاضى .. حضرات السادة المستشارين ... أن هذا المتهم الماثل أمامكم قد فعل فعلته عن سبق إصرار وترصد ... متلاعباً بأرواح الأبرياء وهو المكلف من قبل الدولة لتوفير الراحة لهم بأن ينجز عمله على أتم وجه، ولكنه تلاعب بالجميع، وسخر من كل الذين يحيطون به، مهندسى التنفيذ والاستشارين والمسئولين.. لقد وثق فيه الآخرين.. أن هذا العبقرى نعم أقول عبقرى .. فهو صمم تصميماً هندسياً على أكمل وجه وهو كما تعلمون جميعاً مشروع أبراج المدينة.. وعندما بدأ تبدل كل شىء ليحصل على ثمن عبقريته .. أنه الجشع بعينه يا سادة.. ذلك المشروع الذى هز وجدان ومشاعر العالم عندما انهار.

وقف الأستاذ محمود معترضاً على هذه الإدعاءات وطلب من القاضى أن يتكلم وما أن وقف .. نظرت وفاء تجاه مخلص فى محاولة لطمأنته.

ـ سيدى القاضى.. حضرات السادة المستشارين لن أطيل عليكم بكلمات مزخرفة، لكن سيكون حديثى فى مسار القضية وجوهرها... الإدعاء يخمن أن موكلى عبقرى، ومخترع جشع يسخر عبقريته فى أعمال غير نافعة لأجل مصلحته الخاصة، هل لى يا سيدى القاضى أن أسأل موكلى؟

أشار القاضى بالإيجاب .. اقترب المحامى من مخلص وقد قال بصوت عال :

ـ أستاذ مخلص .. هل صممت المشروع وعرضته على الجهة المختصة دون أن يطلب منك؟

ـ لا .

ـ هل بعد نجاح التصميم لم تنل جائزة!

ـ لقد حصلت على شهادة تقديرية وجائزة مالية تشجيعية.

ـ هل تقدمت إليهم بطلب لتصبح الاستشارى والمهندس التنفيذى المسئول عن المشروع؟

ـ لا.

ـ شكراً يا أستاذ مخلص .. ها قد رأيتم وسمعتم يا حضرات السادة، فقد طُلب منه كل هذه الأشياء، ولم يتأخر موكلى بل شارك كبقية زملائه بتصميمه، ونال عليه الجائزة ونال إعجاب الدولة ورجال الأعمال وكل المتخصصين فى هذا المجال، ومع ذلك فإنه كان واحداً من عشرات المهندسين وأنهم جميعًا يعلمون جيداً مدى صلاحية الخامات ويستشيرونه، وإذا تغيرت أو بدلت سوف يعلم جميع من يعمل فى هذا المشروع.. بالتحديد جميع من يشترك فى التنفيذ .. إن افتراض الإدانة يا حضرات السادة يستوجب الأدلة.. أننى أطلب من عدالتكم التفحص بعين العدالة وبعين المنطق إظهاراً لبراءة موكلى.

أثناء ذلك ارتفعت الأصوات الجانبية تعترض وتشجب مرافعته، بينما طرق القاضى على المنضدة وقال :

ـ هدوء .. الإدعاء هل يريد إثبات شيء؟

ـ نعم يا سيدى .. أننى اتفق تماماً مع الدفاع.

ارتفع صوت الجالسين فى قاعة المحكمة ثانية على تأييد الإدعاء ولكنه قال مكملا :

ـ أنه نال أرفع الجوائز ونال شهرة عظيمة بين زملائه المهندسين ولكن .. هل تستقر النفس البشرية على حالها؟ كلا.. فالغرور والجشع وراء سقوط هذا المتهم الماثل أمامكم .. أننى أؤكد قولى بأنه قد أؤتمن على ممتلكات الدولة وأرواح الناس، ولكنه لم يف بالوعد والشروط الموضوعة فى سجل المواصفات .. والأدلة أمامنا كثيرة.. زملاؤه المهندسون وبقية الهيئة الاستشارية.. هل تسمح هيئة المحكمة باستدعائهم؟

طلب القاضى أن يستدعوا الشهود، ارتفع صوت عال ينادى على الشاهد الأول .. دخل شحاته بك ووقف أمام منصة المحكمة:

ـ هل تقسم أن تقول الحق؟

التفت شحاته يميناً ويساراً ثم تنحنح وقال:

ـ نعم ... والله العظيم أقول الحق.

ـ اسمك وعمرك ومهنتك؟

ـ شحاته حافظ عبدالعظيم.. ثلاثة وخمسين عاماً.. صاحب الشركة الاستثمارية لأعمال المشاريع المعمارية والتجارية.

ـ ما علاقتك بالمتهم وما الذى تعرفه عنه؟

ـ الأستاذ مخلص من المهندسين الطموحين وله أفكار عظيمة ومفيدة، أنا بوصفى مسئولاً عن شركتى المساهمة فى هذا المشروع قد رشحت الأستاذ مخلص مسئولاً للجنة التنفيذ والاستشارة.

ـ أدخل فى الموضوع يا شحاته..

ذات يوم مر على الأستاذ مخلص فى مكتبى وكان يبدو عليه القلق .. عرفت منه أنه يريد أن يسلم المشروع فى ميعاده، قلت له إنشاء الله ستسلمه فى ميعاده، لكن قال لى أن معظم المواد المعمارية سوف تتأخر لدى بعض العملاء الذين يساهمون فى المشروع... اطمأن قلبى وقلت : مازال الخير موجوداً.. فهناك من يخاف على أموالنا ويفكر بعين الحكمة... لكنه قال لى أنه سوف يحضر بعض المواد المعمارية البديلة من أى جهة أخرى حتى يتسنى له انجاز التنفيذ.

فى هذه الأثناء صرخ مخلص معترضاً على هذه الافتراءات، بينما راح القاضى يلزمه الصمت ويشير لشحاته أن يكمل..

قلت له كيف يتسنى لنا فعل هذا التغيير؟ أنه مخالف للشروط وأن هذا البناء الشامخ يحتاج ـ لمواصفات خاصة ومحددة فقال لى، ماذا فى يدى أن أفعل؟ قلت له ننتظر ويمكنك أن تعتمد على المواد الذى سأرسلها لك بمجرد وصولها.. لم يدعنى أكمل ونظر إلى بتهكم ثم

خرج مسرعاً .. ساور تفكيرى القلق والحيرة فى أمره .. اتصلت بمعظم الشركات المساهمة أطمئن على أن موادهم المعمارية سوف لا تتأخر وستأتى فى مواعيدها؟ عرفت منهم أن مخلص قد قال لهم نفس ما قاله لى .. وهم أيضًا قالوا له يمكنه أن يبدأ بالمواد التى ستصل إليه حتى تصل بقية المواد المعمارية الأخرى.. اعتقدت فى ذلك الوقت أنه ليس هناك أى خوف أو قلق لأن جميعهم أكدوا بأن موادهم المعمارية ستصل فى مواعيدها.. إلى أن حدثت هذه الكارثة المشئومة .. عرفنا جميعاً أنه أستبدل جميع المواد المعمارية.

كان مخلص يعترض دائمًا على هذه الأقوال الزائفة والجميع ينزعجون من صوته، دخلت ليزا وأكدت أقوال شحاته بك بقوله الدائم لهم بأنه هو المسئول.. كانت صرخات مخلص تزداد وأنفاسه كادت أن تختنق والقاضى دائماً يجبره على الصمت .. كان جميع من يجلس فى قاعة المحكمة ينظرون لمخلص ويريدون التخلص منه وقف المدعى منتشياً، ووضع وثيقة أمام القاضى وقال:

ـ ها قد رأيتم يا حضرات السادة الأفاضل دليلاً مادياً آخر وهو قرار لجنة المعاينة الذى يؤكد أن المواد المعمارية غير مطابقة للمواصفات، مما يؤكد جشع هذا المتهم الذى لا يملك قلباً ولا ضميراً.

وقف الأستاذ محمود مقاطعاً وقال :

ـ أنا أحتج .. نحن هنا لإظهار الحقائق لتأخذ العدالة مجراها ولسنا لأجل الإهانات والتجريح.. أكمل المدعى:

ـ سيدى القاضى ـ إذا كانت شهادة أثنين من المسئولين فى هذا المشروع تشير إلى أفعال المتهم المشينة فهنالك أيضاً المزيد والكثير ممن يعملون فى هذا المشروع..

إنها جريمة يا حضرات السادة تسىء إلى الإنسانية وأننى أطالب بإنزال أقصى العقوبة بالمتهم.

طلب القاضى من المحامى أن يترافع ولكنه طلب التأجيل .. فترات صمت استشار القاضى ـ مستشاريه، كان يبدو عليهما النعاس وقد أجل النظر فى القضية إلى اليوم العاشر من أول الشهر القادم لحين استكمال الأدلة واستدعاء شهود الإثبات والنفى..

انفضت الجلسة وأخذ عزيز ومؤنس وفاء وبدأوا يتأهبون للخروج وسط ضجيج الحاضرين الذين أبدوا اعتراضهم على انهيار مشروع (أبراج المدينة) .. كلما سمعت وفاء اعتراضهم التى تشين مخلص يزداد حزنها، حاولت شجبها، ولكنها لم تجد غير الصمت والهوان فالصحافة قد لعبت دورها فى تعبئة وجدان ومشاعر الرأى العام.

* * *

١٤

محاولات عديدة يبذلها الأستاذ محمود لمعرفة مزيد من تفاصيل القضية، وبدأ يعتمد على عزيز ومؤنس بوصفهما من ذوى الخبرة فى مجال الهندسة المعمارية، لكن لم يحصلوا إلا على كلمات جوفاء فارغة حيث لا دليل، لا مستندات، لا حيثيات .. المنطق والعقل يؤكد للأستاذ محمود براءة مخلص، لكن أين الدليل الذى يثبت براءته؟

مرت الأيام والحقيقة تبتعد .. بدأ مؤنس وعزيز والأستاذ يتحرون عن مخازن المواد المعمارية وبقايا المواد المنهارة، أكد عزيز أن المواد المتحطمة من بقايا البرج غير مطابقة للمواصفات، لكن أثناء بحثهم عثروا على بعض الصناديق والأغلفة وعليها العلامة التى تؤكد أنها مطابقة تمامًا للمواصفات .. أمر محير .. يوجد سر غامض حير فكرهم، لكن الأستاذ محمود أحس أن هناك تلاعبًا من المسئولين عن استلام المواد المعمارية .... مرت الساعات المتبقية وحان موعد الجلسة ..

جلس الجميع ينتظرون دخول هيئة القضاء، كانت وفاء تنظر إلى الحاضرين، معظمهم رجال الصفقات والأعمال الزائفة.. أيضاً رجال الصحافة الذين يسعون إلى تحقيقات صحفية جميعهم يتسابق على الحصول على سبق صحفى، لا يهمهم أين الحقيقة؟ كل ما يهمهم هو المكسب والفوز بمكانة أدبية وإثارة الرأى العام.

جلست وفاء تتفحص كل هؤلاء .. كان الجميع ينظر تجاه قفص الأتهام .. أحست وفاء أن نظرات مخلص قد تغيرت تماماً، قد أصبحت نظرات انتقام، حتى وجه الباسم الجميل تحول إلى صخرة يخفى معالمه شعره الغزير.. أحست أنه لا يريد أن ينظر إليها .. كادت الدموع تسيل من عينيها ولكنها أرادت ألا تضعف، أخذت تلبس نظارتها القاتمة ثانية وتمعن النظر إلى محبوبها الذى لم تستطع أن تراه هكذا .. كل ما تفعله هو أن تتألم من أجله، تشعر بصرخاته المكبرتة وأنفاسه التى تئن فى مسامعها، نظرت إليه وكل الأحاسيس والمعانى تنطق بداخلها ..

أعلم وأعرف جيداً أن عذابك يفوق لهيب الجحيم، وأعرف أن صرخاتك المكبوتة هى صوت ضائع فى أرجاء الكون، كهبوب الرياح بين السماء وبين الرمال المتحركة فى الصحراء .. لا أستطيع أن أنظر إليك حبيبى .. إن عذابك يقتلنى ولا أملك سوى شىء واحد .. هو أن أشجب هذا العالم الذى تنخر فيه الأخطاء والزيف.. عالم المجرم فيه طليق، عالم مباح فيه الزيف والعذاب..

آه .. أن عالمكم يقتله يا من تفكرون فى المجد والشهرة فوق معرفة الحقيقة والمشاعر النبيلة.. آه لو تعرفون يا من تجلسون هنا أن نظراتكم

التهكمية وإدعاءاتكم الباطلة تعاقبه أشد عقاب من أجل فعلة لم يرتكبها..

آه لو تعرفون .. أن نظراتكم هذه ستحول عالمه الذى أعرفه جيدا إلى عالمكم المملوء بالحقد والكره والانتقام والعقاب.. النتيجة واحدة.. هى العقاب.

غريب أيها القدر!! سائر بلا خطى!! أننى أراكم جيداً من خلف هذه العتامة يا للمهزلة كيف يلوث الإنسان البرىء ولا يملك حتى دليلا لبراءته سوى الصمت؟!!

انتبهت وفاء على صوت يدوى فى أرجاء القاعة ... (محكمة)، وقف الجميع حتى دخلت هيئة القضاء وأذنت للحاضرين بالجلوس.. حضر معظم المشاركين والمساهمين فى تنفيذ المشروع.. وقف الأستاذ محمود وقال:

ـ سيدى القاضى.. حضرات السادة المستشارين.. إن القضية التى نحن بصددها هى ليست قضية هذا المهندس، لكنها قضية تخص المجتمع بأسره.. ألا وهى قضية الضمير .. نعم يا سادة.. الضمير .. هل تسمح لى عدالتكم باستدعاء زملائه فى المشروع؟

كان القاضى يجلس ويبدو عليه الوخم الشديد.. طلب من الحاجب أن يستدعى الشهود.. ارتفع صوته، نادى عليهم واحد تلو الآخر.. أقسم الجميع اليمين والجميع شكك فى أفعال مخلص وتصرفاته!!.. بدأت وفاء تعلق على إدعاءاتهم الزائفة بينما ظل مخلص ثائراً على هذه

الافتراءات .. طرق القاضى على المنضدة يطلب الهدوء من الحاضرين ثم وجه كلامه إلى الأستاذ محمود يطلب منه أن يكمل مرافعته...

ـ هل رأيتم يا حـضـرات السـادة المسـتـشـارين كل هذا الكم من زملائه.. جميعهم يعترض على أفعاله .. أنه زميل لهم .. وجميعهم يشين تصرفاته!! .. مع أن البداية كانت سريعة جداً فى بدء المشروع.

وجه السؤال إلى مخلص وقال :

ـ أستاذ مخلص .. هل جاء إليك أحدهم فى يوم ما واعترض على المواد المعمارية؟

ـ كلا..

ـ هل كانت هناك خلافات بينك وبين أى مهندس؟

ـ كلا..

وقف المدعى مندفعًا يعترض على هذه الأسئلة بأنها ليست لها أية علاقة بالقضية ولا تستند إلى دليل مادى.. أحتج الأستاذ محمود على تدخل المدعى ثم بدأ يكمل مرافعته:

ـ إنها حالة من حالات الضمير الإنسانى...فلننظر بعين الحكمة وأرجو من عدالة المحكمة أن تفسح صدرها لى.. كيف يتسنى لهم أن يستمروا فى العمل ولن يتقدم أحدهم باعتراض يطلب فيه إيقاف التنفيذ .. الجميع اتفقوا على إدانته، وهو الإنسان الذى يكن لهم كل مودة وتقدير... هل تتذكر يا أستاذ مخلص أنك ذات يوم طلبت من أحدهم أن يخالف المواصفات المطلوبة؟

ـ لا.

ـ هل يتسنى لى يا حضرات السادة الأفاضل أن أسأل بعض الزملاء؟

أشار له القاضى بالإيجاب.. استدعى أحدهم ووجه الأستاذ محمود إليه السؤال:

ـ من المسئول عن استلام المواد المعمارية؟

ـ أنا .. وهناك آخرون أيضاً يتسلمونها فى فترات عملهم!!

ـ هل الخامات التى تسلمتها غير مطابقة للمواصفات؟

ـ جميعها مطابقة للمواصفات.

ـ هل تعتقد أن هذه الخامات كانت تبدل بخامات أخرى؟

ـ لا .. نعم .. لا أدرى!!

وقف المدعى ثائراً معترضًا على توجيه هذه الأسئلة.. طلب القاضى منه أن يجلس وأشار للأستاذ محمود أن يكمل...

لا يدرى يا حضرات السادة المستشارين إن كانت المواد المعمارية تتبدل أم لا!! وإذا كان جميع من يعمل فى هذا المشروع ينفذ المواصفات الهندسية والمعمارية.. فلابد أن هناك تلاعبًا فى هذه المواصفات .. من ثم فالتقارير المقدمة من لجان المعاينة تفيد أن انهيار الصرح الهائل نتج عن نقص الخامات وعدم مطابقتها للمواصفات .. أنظروا أيها السادة... هاهى بعض الصناديق المستوردة التى استخدمت فى تنفيذ المشروع جميعها مطابقة للمواصفات.. لكن هل ما بداخلها مطابق بالفعل أم تبدلت أثناء وصولها؟

وقف المدعى مندفعاً وقال:

ـ ماذا يريد الدفاع بالتحديد؟

ـ أنا أحتج على مقاطعته المستمرة.. سيدى القاضى .. سواء كان ما بداخلها مطابق للمواصفات أو تبدل أثناء وصوله فإن موكلى لن تقع عليه أية مسئولية.. ومن الجدير بالذكر أن توجه كل هذه الأتهامات إلى الشركات المساهمة التى تجلب هذه المواد ومن جهة أخرى بقية المستلمين الذين يستلمونها .. فهى تبدل فى هذه اللحظة بمواد أخرى!!

ـ أنا أحتج على توجيه الأتهامات لهؤلاء الأبرياء.

ـ أليس غريبًا أن كل المهندسين والمتعاونين فى تنفيذ المشروع جميعهم دون استثناء أبرياء وتقع المسئولية بأكملها على فرد واحد .. هو فى النهاية زميلا لهم.

قال الإدعاء بصوت جهورى:

ـ وأليس غريباً أن هذا المتهم هو المهندس المباشر والمسئول التنفيذى والإستشارى ورأيه فى البداية والنهاية هو الذى سينفذ ... أليس غريبًا أنكم بعد أن سمعتم أن جميع من يعملون فى التنفيذ كانوا يضيقون ذرعاً بأفعاله وتصرفاته وقوله لهم.. أن جميع الخامات صالحة وتؤدى الغرض ... هناك دليلا آخر يا حضرات السادة... أحد زملائه فى المشروع.

دخل شخص لم يعرفه مخلص وظل يردد أقوالاً لم تحدث، ويدعى أن مخلص قد أبعده عن المشروع لأنه فهم هدفه جيداً.. صرخ مخلص

وحاول أن يؤكد أن هذا المهندس لم يعرفه ولم يعمل فى المشروع وأن إدعاءته باطلة ... طلب القاضى من مخلص أن يلتزم بالصمت لحين أن يطلب منه، وقف المدعى متهكماً وقال:

ـ أنه يدعى يا حضرات السادة أنه لم يعرف زميله.. والغريب أن جميع ممن يعملون فى المشروع يعرفونه جيداً، غير ذلك أنه مدرج ضمن أسماء المهندسين المنفذين فى المشروع .. لكن المتـهم أحس بخطر يهدده عندما واجهه زميله بعدم صلاحية المواد المعمارية فأخذ يبعده كى يحقق جشعه، أيضًا أمام حضراتكم قرار لجنة المعاينة التى أوضحت به عدم صلاحية المواد المعمارية وأكبر دليل على ذلك هو هذا الغفير .. ذلك الحارس الليلى الذى يجلس أمامكم هنا.

استدعى القاضى الغفير وطلب منه أن يدلى بأقواله.. نظر الغفير إلى الحاضرين وهو يبتلع أنفاسه وقال:

ـ الأستاذ مخلص ربنا يقدره على فعل الخير .. رجل طيب القلب وإنسان.. أيام كثيرة وقف بجانبى ليقدم لى كل عون ومساعدة.. كنت أدعو له بالخير والنجاح و ..

أرتفعت الأصوات فى القاعة معترضة على كلامه .. طرق القاضى على المنضدة وقال :

ـ هدوء .. هدوء يا سادة.. أدخل فى الموضوع.

نظر الغفير إلى مخلص ثم ابتلع انفاسه وقال :

ـ اعتدت على رؤيته ليلا، كان يحضر ومعه بعض العمال.. كنت أسأله عن هؤلاء العمال، كان يقول لى .. أنهم سيعملون فترات إضافية لأجل تسليم المشروع فى موعده.. كنت أدعو إليه بالخير.

ـ وقف الأستاذ محمود وقال :

ـ وكيف تسمح له بالتواجد فى غير المواعيد المحددة؟ ألا تعرف أن ذلك مخالف للتعليمات؟

ـ يا أستاذ .. أنا رجل فقير ولا أعرف شيئًا غير أن أكسب قوتى اليومى لأجل تربية أبنائى، كنت أعرف أن المهندس مخلص هو المسئول عن كل شيء والذى يقوله لابد أن يصير.

أخذت وفاء تصرخ وتكذب هذه الأقوال الباطلة، أرادت أن تثبت أن مخلص منذ بداية المشروع لم يغادر المنزل ليلاً، طلب القاضى منها الالتزام وإلا سيخرجها من قاعة المحكمة، ثم طلب من الغفير أن يكمل.

ـ كان يأتى ليلا ويجلس معى يسامرنى ويخفف عنى همومى، وكانت بعض السيارات تدخل وتخرج وبها بعض العمال.

سأله الأستاذ محمود:

ـ هل تعرف هؤلاء العمال؟

ـ كلا.

ـ ماذا كان بداخل السيارات؟

ـ لا أدرى.. فقد كان العمال يفرغون أشياء ويحملون بعض الأشياء عليها، لم أستطع أن أميزها فقد كانت مغطاة... هذا خلاف أنهم كانوا يدخلون ويخرجون كثيراً بالسيارات.

أخذ مخلص يصرخ، والجميع يشجبون صرخاته واعتراضه بينما طلب القاضى الجميع أن يلتزموا بالصمت .. وقف الإدعاء وقال:

ـ ها قد رأيتم ياحضرات السادة .. اللغز الأوحد الذى كشف خبايا هذه الكارثة .. وقد أظهرت السماء عدالتها قبل أن تسكنها الأرواح البريئة جميعها ، لكن الله أراد أن ينقذ المجتمع من كارثة مؤكدة .. إننى يا سيدى القاضى إذ أسرد مرافعتى أمام قضائكم العادل أطلب منكم انزال أشد العقوبة للمتهم وهى الحكم بالإعدام ليكون مثلا رادعًا لأمثاله.

هلل الحاضرون وأبدوا إعجابهم بهذه المرافعة، وبدأوا يرددون بأصوات مندفعة جهورية (يحيا العدل .. يحيا العدل) بينما ظل القاضى صامتًا، لم يحاول أن يهدئ هذه الأصوات .. نظرات الحقد والانتقام تتغلغل فى عينى مخلص .. بينما ظلت وفاء تذرف الدموع من عينيها .. أخيراً أوقف القاضى التهليل بطرقاته المتباطئة وقال بتخاذل:

ـ هدوء يا سادة.

وجه بصره إلى الأستاذ محمود وطلب منه إذا كانت لديه أسئلة أخرى .. أومأ الأستاذ محمود برأسه بعدم الايجاب .. وقف مخلص ثائراً وقال بصوت مختنق:

ـ إن جريمتى ياسادة كما تسمونها ليست بصدد وقوفى الآن هنا فى قفص الاتهام .. جريمتى ياسادة هى ... أننى أحببت كل الناس بصدق، وأنتم أيها الزملاء قد ألجمتم صوتى باتهاماتكم العمياء هذه ... أنكم تشعرونى بحبكم الذى انهال علىّ بالجرم ولكن دون أن أجرم .. الكلمات هراء .. لن أصرخ يا سادة وأقول لماذا أنا فقط ؟

هل تسمعون ياحضرات السادة ؟ . لست السبب .. السبب ياحضرات ويازملائى الأعزاء .. هى ضمائركم .. إننى أفضل أن أصير هكذا على أن أعيش عالمكم المملوء بالزيف وتغيير الحقائق .. لن أقول ياسادة أننى شيدت الأبراج بمفردى دون تدخل من أحد .. لن أقول أن جميعكم زيف وتخلى عن مبادئه لأجل رغبات كاذبة .. لن أخلع أبداً جذورى من أصالة هذه الأرض التى تطاؤنها بأقدامكم .. جريمتى ياسادة أننى أحببتكم جميعاً ..

بدأت الكلمات تختنق فى صدره إلى أن ارتفعت أصوات الحاضرين تشجب نداءاته حتى الجالسين على منصة العدالة لم ينتبهوا لكلماته .. وقف ممثل العدالة وقال:

ـ من هم شركائك ؟

ـ شركائى هم من يعملون فى هذا المشروع.

ـ قال المدعى بصوت جهورى:

ـ أنه يصر على أنه لايريد أن يبوح بشركائه .. ماذا بأيدينا أن نفعل؟ . غير تطبيق القانون، والأدلة واضحة وصريحة .. أولها خيانة

الأمانة، ثانيها تبديد أموال الدولة ثالثها الإهمال الجسيم والضرر العمد .. إننى أطالب ياحضرات السادة بأشد العقوبة وتنفيذ قانون العقوبات رقم ٦٣ مادة ١٢٢ ، ١١٣، فقرة ١ ومادة ١١٦ ليكون مثلا رادعًا لأمثاله.

أيضًا وجهت إليه تهمة الاستيلاء على المال العام بدون وجه حق وأموال الشركات المساهمة وتهمة الاختلاس مع سبق الإصرار والترصد.

فترات صمت والحاضرين ينظرون إلى بعضهم بسرور .. نظرت وفاء من خلف نظارتها إلى شحاته بك وليزا وبعض المهندسين فى المشروع وبعض شهود الإثبات .. كانت تبدو وجوههم غير مألوفة جميعهم مقعروا الوجوه .. الغفير ومهندسو التنفيذ وبقية الشهود وجوههم غير مألوفة .. يبدون كالدمى الباسمة وخيوط هذه الدمى فى يدى شحاته بك الذى يجلس منزويًا فى الخلف، .. وليزا التى تبهرهم بمفاتنها .. الجميع فى النهاية عبيدو المال والجمال !

طرق القاضى على المنضدة وقال:

ـ الحكم بعد المداولة .. رفعت الجلسة.

بدأت الأصوات تتداخل .. نظر مخلص من خلف القضبان إلى وفاء التى خلعت نظارتها وبدأت ـ تكفكف دموعها .. الأصوات تعلو.. تصبب العرق على وجه مخلص وهو يحدق النظر فى الآخرين الذين كان يبدوا عليهم أثر السعادة ! .. ضاعت صورة وفاء وسط الزحام.

.. دخلت هيئة القضاء وعاد الصمت إلى القاعة .. وقف مخلص ممسكاً القضبان ..

رفع القاضى رأسه وقال بشموخ :

ـ بعد الاطلاع على القضية رقم ٩٦٧ وبناء على المادة ١١٢، ١١٣، ١١٦، ٣٤١ من قانون العقوبات .. حكمت المحكمة حضورياً على المتهم مخلص عبد الصادق المصرى بالأشغال الشاقة المؤبدة .

علت صرخات وفاء فى أرجاء القاعة، أخذ مخلص يردد (برىء .. برىء .. لم تحاكمونى بحق العدالة الحقيقية) .. وفى نفس الوقت ضاعت صرخات وفاء وسط تهليل الحاضرين الذين يمتدحون الحكم ويهنئون أنفسهم على هذه النتيجة .. جرت وفاء تجاه القضبان ، أمسكت يد مخلص المنهار .. كانت الدموع شلالات تمشى عليها متهاوية تحاول أن تثبت قدميها .. تنظر إليه والكلمات تخرج من فمها المنتحب (لن أتركك سنستأنف) أمسك الحارس مخلص وجذبه إلى الجهة الأخرى، ليخرجه، بينما وفاء قد التصقت بيديه ، ظلت تصرخ (لاتتركنى .. قتلة .. سفلة) الصرخات تعلو وهى تردد نفس الكلمات .. أمسكها عزيز ومؤنس وفكا يديها من مخلص حتى اختفى من أمام عينيها.

***

١٥

الوحدة قاتلة، والملل شبح يطارد أحلام اليقظة، والأيام التى تمر جرداء، فضلت وفاء أن تعيش عالم مخلص.. النقاء، الحياة الحالمة، فضلت أن تغلق على نفسها، ابتعدت عن التعامل مع الآخرين، .. جميع اهتماماتها كانت بطفلتها والزهور التى تحيط المنزل.. اعتادت أن ترتدى نظارتها ثانية والجلوس صباحًا فى بستان المنزل تنتظر، عل أشعة الشمس تشرق!! ونسمات الهواء تعود!! الشىء الذى يشعرها أنها ما زالت تعيش هو موعد زيارتها لحبيبها والتأمل فى صورته.

قدم الأستاذ محمود المحامى القضية إلى محكمة النقض، وقد أيدت الحكم السابق «الأشغال الشاقة المؤبدة».. لا مفر من هذه الحقيقة الزائفة.

الإحباط واليأس جعلا مخلص هائمًا بعيداً لا يريد أن يتحدث إلى أحد.. لا يريد أن يلتقى بأحد، عانت وفاء كثيراً كى تتمكن من زيارته، فطلبت أن تقابله بأية وسيلة.. بالفعل قد سمح لها المأمور بزيارة خاصة له، استدعاه فى مكتبه ثم خرج وما أن رأته وفاء جرت تجاهه وخلعت

نظارتها وأخذت تعانقه، والدموع تسيل من عينيها.. ابتعد مخلص عنها قليلاً وطلب منها أن تكفكف دموعها فهو لا يستطيع أن يراها هكذا.. حاولت أن ترسم الابتسامة على وجهها وأرادت أن تخرجه من عزلته وتلومه على أنه لم يرد مقابلتها، أخذت تتحدث عن ظلم الآخرين وتمجد مثاليته فى النزاهة والشرف.. كان مخلص يتألم وهو يستمع لهذه الكلمات .. قال:

ـ .. أرجوك اصمتى.

ـ من الصعب على كلينا أن يسجن.. أنك تشعر هنا إنك سجنت ظلماً داخل هذه الزنزانات. لكن من العسير أن يسجن الإنسان نفسه.!!

أرجوك اسمعنى جيداً.. يجب أن تفك قيود نفسك من اصطدامك الأليم بالواقع الذى تعيشه الآن.. فقط يكفينى أن أراك فى حالة غير هذه، فقط يكفينى أن أراك حتى لو أصبحت خلف قلاع العالم!! أتعرف؟.. أنت تشعر هنا أنك مقيد ولكننى أشعر أننى مقيدة أكثر منك!! أرجوك عد كما عهدتك لا تهدم الحلم الجميل والعالم الذى شيدته داخلى.. سأنتظرك.

انتبه مخلص وأومأ برأسه .. قال:

ـ لا .. لن أدعك تنتظرين!! لن أدعك تنتظرين إنسانا ليس له أى وجود.. الحياة أمامك.. انعمي بها.. أخرجى عن أحلامك الزائفة واهنئى بالسعادة التى يعيشها الآخرين .. الأحلام هراء.. هل تفهمين؟

ـ أنا لا أفهم إلا شيئاً واحداً.. هو أننى أحبك أنت.. حياتى وأحلامى وسعادتى معك أنت حتى لو كنت فى آخر العالم.. لن تفرقنا الجدران والقضبان وكل العالم.

هل تفهم ؟ سأنتظرك!!

أخذ مخلص يضحك ويسخر من كلماتها ويدعى أنها تعيش وهمًا وسراباً، طلب منها أن يحل وعده لها وارتباطه بها ويمكنها أن تحصل على حريتها .. لكن وفاء وضعت يدها بسرعة على فمه وقالت:

ـ كلا .. أرجوك لا تنطقها.. إن ما بيننا يفوق كل وعود العالم.. انك وعدتنى حباً أبدياً وباركت السماء هذا الوعد الذى نبض فى قلوبنا قبل أن نتزوج.. إن ما يربطنى بك ليس الرباط الشرعى فقط بل هناك ما هو أهم بكثير..، يكفنى أننى عشت الحياة التى كنت أبحث عنها.. لا أستطيع أن أهدم المدينة الجميلة التى تعاهدت عليها قلوبنا.. لا أستطيع أن أنزع قلبى وعقلى وروحى ودمى.. لا أستطيع أن أدعك فريسة للإحباط – والانتقام .. لا أستطيع أن أعيش بدونك.. هل تفهم؟!

ضحك مخلص بمرارة وقال:

ـ المدينة جميلة .. الليالى الحالمة.. الحب، الصدق، الإخلاص، الوفاء . سراب .. من السهل أن أعيش عالمك ولكن من الصعب تحقيقه فى هذا العالم!!. من السهل أن يتحول الإنسان، ولكن من الصعب أن يجد الإنسان نفسه فى عالم غريب لا يستطيع أن يحب، أن يحيا. أثناء كلماته بدأت دموع وفاء تسيل من عينيها، لم يستطع مخلص أن يرى

دموعها، ضمها إلى صدره، بينما راحت تنظر فى عينيه الشاردتين وبدأت تقنعه أن يخرج من هذه الأفكار وتحاول أن تفهمه أن كل ما يهمها هو وطفلتها والوليد الذى سيأتى، ورجته أن يخرج من عزلته ويفكر فى طفلته وابنه الذى لم ير النور بعد.

جلس مخلص واضعا يديه على جبهته.. تراجعت وفاء ببطء تجاه الباب وهى تردد نفس الكلمات بصوت شجن حتى اختفت.. دخل الحارس وأخذ مخلص ليضعه فى زنزانته.

عادت العتامة تحيط الزنزانة، جلس مخلص منزوياً وكلمات وفاء تتردد فى ذهنه .. بدأ يضحك ضحكات هيستيرية يغلب عليها البكاء والنبرات الحزينة، ظل يتخبط فى أرجاء الزنزانة إلى أن تهاوى ببطء على الأرض ثم نظر إلى النافذة الصغيرة.. راح تفكيره بعيداً يتذكر الأيام الجميلة والنجاح المبهر، أخذ يقول..

(ما زلت أحلم) !! انطلقت الضحكات المريرة من فمه، وراح ينظر فى أرجاء الزنزانة ويتأملها..،

أخيراً يا مخلص أصبح مكانك هنا بين العتامة والجدران الصلدة والقضبان.. أخيراً ستقضى بقية حياتك فى هذه العزلة من العالم! هذا هو المكان الذى تستطيع من خلاله أن ترى العالم بحقيقته.. هنا تستطيع أن تحقق أحلامك وطموحاتك فى دهاليز الزمن المفقود.. أصرخ، أضحك .. لن يسمعك أحد غير الجدران الصماء.. كنت تحلم بمدينة يملؤها الحب، يسكنها الخير والمثل والقيم النبيلة.. كنت تحلم بمدينة هادئة كلون السماء، تنتظر إشراقة الشمس بجدائلها الذهبية

وتسمع أصوات البلابل وزقزقة العصافير .. كنت تحلم أن تنبت الأرض ريحاناً وياسميناً. كنت وكنت.. وها أنت فى النهاية تستطيع أن تحقق أحلامك هنا.. أكتب ما تريده على هذه الجدران الدفينة .. ارسم.. ستحقق كل ماتريده.

الكلمات تتخبط فى عقله، وصارت الجدران تدور حوله، وضع مخلص يديه على أذنيه وهو يتألم ويشجب أنين الصمت والرسومات المنقوشة على الجدران، وأخذ يزيلها ويمسح الجدران وهو يردد.

هراء.. هراء.. كل الحقائق هراء.. كم من حقيقة ضاعت هنا بينك أيتها الجدران الصماء اللعينة.. كم من برىء ظل يكتب ويرسم عليك وأنت كالبئر الرخو تبتلعين كل المعانى وكل الحقائق..

أريد أن أرى قلبك الصلد الذى يختزن دموع الأبرياء.. لا أريد أن أكتب وأرسم معانى حقيقتى مثل الحقائق التى التهمت هنا.. كل ما سأفعله.. هو أننى سأمحو رسوماتك هذه هكذا.. هكذا.

بدأت سرعته تتزايد فى محو الرسومات والكتابات.. كان كل رسم يمسحه يليه رسما آخر.. جميع الرسومات والكتابات تخبئ خلفها رسومات أخرى تظهر بدلاً من التى يمحوها.. تعب مخلص من تخبطه فى أرجاء الزنزانة فأخذ يضرب الجدران بيده وظل يتخبط يميناً ويساراً وهو يضحك إلى أن خارت قواه وانطرح أرضا.

* * *

١٦

مرت الأيام وأنجبت وفاء طفلاً أعاد إليها شيئاً من الأمل.. أرادت أن تبلغ مخلص ولكنها لم تستطع فقد خارت قواها، وظلت تنتظر حتى تتحسن صحتها وتصبح فى حالة جيدة.. كان عزيز ومؤنس يأتيان إليها بأخبار مخلص الذى كانت حالته تسوء يومًا بعد يوم، ولكنهما كان يقولان لها أنه فى حالة جيدة وأنه مشتاق لرؤيتها.. أرادت وفاء أن تقاوم المرض وتذهب لرؤية زوجها، لكن عزيز منعها لسوء حالتها هى الأخرى.. يا لسخرية القدر !! إنها تريد أن تذهب لحبيبها حتى يتسنى له أن تقوى عزيمته ويشتد عود الأمل والحياة .. كيف وهى أيضاً متعبة الأمل والحياة؟!!

انشغل عزيز ومؤنس فى دوامات الحياة ومشاكلها وأصبحت وفاء فريسة للوحدة والكتمان.. تعانى مرارة الأيام.. حيث لا أخبار عن مخلص .. بينما الساعات تمر والأيام كما هى لا تتغير.. أرادت أن تقاوم مرضها من أجل تربية طفليها وأن تلتقى بحبيبها .. تحاملت على نفسها وخرجت لزيارته.

كان مخلص كالعادة لا يريد أن يخرج فى مواعيد الزيارة .. طلبت وفاء من المأمور أن يأذن لها بمقابلته، طلب المأمور من الحارس أن يستدعي مخلص وترك غرفة مكتبه وخرج .. وقفت وفاء تتحامل على نفسها وهى تتظاهر بالقوة محاولة رسم ابتسامة على وجهها .. أوصد الحارس باب الغرفة بعد أن دخل مخلص الذى حاول ألا يواجهها، بينما أرادت وفاء أن تقف أمام عينيه .. طلب منها ألا تأتى إليه ثانية ويجب ألا تنتظره، لكن وفاء لم تفه بكلمة وظلت واقفة أمامه صامتة .. استدار مخلص قليلا وقال:

ـ أنت تعرفين جيداً أننى سأظل طويلا ولا أمل فى الخروج من هنا .. إن فارسك قد قتل وليس بمقدوره أن يفعل شيئًا تجاهك! ماذا تنتظرين بعد؟ أجيبى .. هل ستقفين تنظرين إلى هكذا؟ لا أريد شفقة من أحد!!

قاطعته وفاء وقالت:

ـ أحد!! أنا .. أنت تعرف جيداً مدى الحب الذى أتعذب به الآن،، أننى أعرفك جيداً مثلما أنت تعرفنى .. هذ ما جعلنا نفكر بطريقة واحدة، أنت تقول الكذب .. لا تريد أن أتألم من أجلك، أنت لا تريد أن تنظر إلى لأنك تريد أن تهرب من نفسك!!

استدار مخلص مواجهاً لها وقال:

ـ ليس هروبا .. أنت لا تفهمين شيئًا بحبك الأعمى هذا .. أنظرى إلى نفسك!! هل أنت وفاء الحورية الجميلة التى أعرفها؟ الابتسامة الجميلة التى لم تفارق شفتيك أصبحت زائفة .. هذا بسببى أنا.

ـ كفى .. أنك تتألم من أجل آخرين ليس لهم وجود، أما أنا أتألم من أجل شيء له قيمة.. أتألم من أجل زوجي وحبيبي.

نظر مخلص إليها وقد خفت صوتها، أرادت أن تفرح قلبه وتعيد إليه البسمة والأمل، أخذت تحدثه عن ابنه وحيد وابنته نسمة بينما هو وقف صامتًا متحجرًا، كلماتها ضاعت في الفضاء!! بدأت تنهار والدموع تنزرف من عينيها والتعب حل عليها، لن تستطع أن تلملم قواها وهي تتهاوى بينما مخلص قد أمسك بها قبل أن تسقط، أخذ يكفكف دموعها وهو ينظر إليها متأملا هيئتها ووجهها الشاحب، طلب من الحارس أن يحضر كوبا من الماء وأخذ يبلل وجهها حتى استفاقت..

وجدت نفسها بين ذراعيه وهو يربت عليها، انطبعت على وجهها ابتسامة مريحة بينما ابتلع مخلص أنفاسه، وبدأ يعدل من وضعها وهو يحاول أن يظهر أمامها بشكل مريح .. لكن القلب يختزن أحزانه وإحباطه ويأسه.. صار يخفي في صدره الآلام والظلم حتى تشعر وفاء أنه لا يتعذب.. ارتاح قلبها بمجرد أن رأت لهفته عليها وسماع صوته العذب الذي يطمئن عليها.. نظرت إليه وقالت بهدوء:

ـ أرأيت ها أنت تعود كما أعرفك.. صدقني بالرغم مما حدث فلا نستطيع أن نهرب من قدرنا.. إنك تؤنب نفسك على فعلة لم ترتكبها بسبب أناس ليس لديهم أية رحمة أو ضمير، في نفس الوقت أتعذب أنا لعذابك.. مجرد أن تتعذب .. العذاب يحطمني.. تتألم، تكتئب... تتحطم المعاني داخلي.. يكفي أن أراك فقط.. إن الأحزان عتامة تقتل الأمل والحياة.. فلنترك الأحزان وننظر للحياة والآمال وطفلينا.

صمت مخلص لحظة ونظر إليها يتأمل وجهها والكلمات تتردد فى ذهنه... (الحب، الآمال، الحياة.. كلمات لم يعد لها وجود!) كل ما يدور فى داخله هو الانتقام فهو لا يعرف كيف يتناسى ما حدث له، أن يتكتم أحزانه ويرثى نفسه لكن عندما يتذكر حبيبته يعاود الحب مكانه ولكن..!

ظلت وفاء تردد كلماتها عن الحب وتبث فيه الأمل، بغتة دخل الحارس ينبهها بانتهاء الزيارة .. وقف مخلص وذهب مع الحارس ليدخله زنزانته، لكن وفاء قبل أن ترحل أرادت أن تقدم شكرها للمأمور وقد استرعى انتباهها شيء سمعته قبل أن تمشى فسألته به.

ـ سمعتك تقول للحارس ضعه فى زنزانته .. هل هى زنزانة خاصة به.

أجاب المأمور:

ـ نعم .. لكن تأكدى أنه سينقل إلى زنزانة أخرى ويقيم مع زملائه فى القريب العاجل.. إن حالته سيئة للغاية، لا يريد أن يتحدث معهم أو حتى يتفهم (لغواهم) فكانت المشاكل تزداد يوماً تلو الآخر، لكنه سينتقل معهم عندما تتحسن حالته النفسية إنشاء الله.

– آمل ذلك.. أشكرك على تفهمك الشديد لحالته.

عادت وفاء إلى منزلها وقد ارتاح قلبها، وبدأت تهتم بشئون منزلها وتربية طفليها، لم تنس أبدا ميعاد الزيارة لزوجها.. والورود التى كانت تزرعها وترويها حول المنزل، بدأت تكبر وتتفتح.. ازدادت وفاء أملا

وكانت من حين لآخر تأخذ نسمة ووحيد، وتذهب إلى حديقة الأحلام.. المكان الذى يستريح قلبها فيه وتقضى معظم اليوم هناك، لكن بالنظارة القاتمة!! كانت تبث القيم والمبادىء فيهما، أرادت أن تجعلهما فى أحسن حال، أرسلتهما يتعلمان فى أحسن المدارس...

عاشت تكرس حياتها وجهدها لطفليها .. عادت الحياة تدب فى المنزل ثانية، وقد انشغلت كثيراً فى متطلبات نسمة ووحيد اللذان نعما بحياة هادئة وأم جميلة.

مرت الأيام ووفاء تنتظر الأمل التى كرست حياتها من أجله، ملت أسئلة طفليها عن والدهم وكثيراً ما قالت لهما أنه يقيم فى أوربا وسوف يعود قريباً... لم يعرفا عنه سوى الحكايات التى ترويها لهما وفاء.. سأل وحيد أمه:

ـ أليس غريباً يا ماما أنه لا يرسل برقية إلينا؟

ـ قلت لكما كثيراً أنه سوف يأتى قريباً.

نظرت بسمة إلى أمها وقالت بخجل:

ـ ماما.. نحن الآن كبرنا ونستطيع أن نتحمل المسئولية ولا ينقصنا غير رؤية والدنا.. هل كان هناك سوء تفاهم.. أو اختلاف؟

قالت وفاء بحزم:

ـ كلا .. كلا.. أنتما تعلمان جيداً قدر الحب الذى أكنه لوالدكما، وتعرفان أيضًا أنه يرسل لنا شهريا احتياجاتنا عن طريق البنك، قد انقضت سنوات طويلة من بعثته وسيعود إلينا قريباً، أرجوكما لا تطيلا علىّ أكثر من ذلك.

ذات يوم ذهبت وفاء لزيارة مخلص لكي تطمئن عليه وتطمئنه على أبنائه.. كان مخلص يتظاهر أمامها بالسعادة لأجل أن تقاوم مرارة الأيام.. لكن وفاء كانت تعرف ما يجيش فى خاطره، تعرف الحزن واليأس الذى يخفيه داخله، تعرف أيضًا أن زيارتها له يخفف عنه الآلام والأحزان.. وما أن رأته أخذت تنظر إليه، وتتلمس يديه بينما هو ظل يمعن النظر فى عينيها الجميلتين.. وقال:

ـ كيف حالك؟ لعل نسمة ووحيد بخير؟

ـ بخير وأنت ؟

ـ أنا !! كما ترينني .. الحال هو الحال.. أبحث دائماً عن الخلاص.

وجدت وفاء أنه سيعاود شروده فأرادت أن تغير الحديث...

ـ لقد فات الكثير وما بقى إلا القليل!

قاطعها مخلص ضاحكاً بسخرية:

ـ القليل !!.. نعم .. نعم.

أرادت وفاء كالعادة أن تحكى له عن أطفاله وعن انشغالاتها وهو يستمتع بالنظر إلى عينيها وعذوبة صوتها حتى أنتبها على صوت الحارس... ظلت تنظر إلى مخلص تتأمل عيونه الحزينة، وهو يبادلها النظرات، ويتلمس يديها الناعمتين ووجهها الجميل، وهى تبتعد شيئاً فشيئاً حتى اختفت تماماً من أمامه.. صار يردد بصوت شجن (يجب أن تهتمى بنفسك .. مع السلامة .. مع السلامة).

انتبهت وفاء على صياح الديكة.. كان الفجر قد شقشق، ولاحت معالم الغرفة.. وما زالت صورة حبيبها بين يديها.. كانت الدموع تلامس وجنتيها، وصدى صوت حبيبها لم يفارق مسامعها.. وقفت تتسند على فراشها، وكأنها لم تنم منذ فترة طويلة، فقد خارت قواها.. كالعادة.. ابتسمت بمرارة، وراحت تعد وجبة الإفطار لتتناول الفطور مع نسمة ووحيد.

* * *

١٧

جلس مخلص فى زنزانته، منهك القوى يائسًا كعادته .. الظلمة لا تتغير، لا يدرى ما إذا كان فى بداية اليوم أو فى آخره .. لا يرى إلا الحكاية المرسومة على جدران الزنزانة، ولا يسمع إلا أنين المظلومين.

ما زال صوت القاضى يتردد فى مسمعه، وصورة شحاته بك وليزا وجميع من ظلمه.. صورهم تلاحقه وتطارده.. تغيرت الرسومات جميعًا بصور هؤلاء السفلة، وبدأت تتردد كلماتهم واتهاماتهم الباطلة . أخذ يغمض عينيه ويسد أذنيه، لكن ما الفائدة؟ فهم يطاردونه فى ذهنه وأعماق نفسه.. بدأ يصرخ (كفى كلا) كانت صورهم العالقة أمامه على الجدران جميعها تمد أياديها تجاهه، وهو يحاول أن يتخلص، تزايدت الأيادى حول عنقه، كادت أن تخنقه .. بدأ يضرب الهواء والجدران ليحطم هذه الصور، ويخرس هذه الأصوات.. لكن دون فائدة، إنها تتزايد وتتكاثر، وصرخاته تعلو.. تعلو.. (لن أدعكم تحاكموننى مرة ثانية أيها الأشرار.. سأقتلكم جميعًا) .

أخذ يضرب بكل قوته، الضحكات تعلو حوله، ضاعت صرخاته وسط الضحكات .. وهنت يداه من كثرة الضرب على الجدران، صار يضرب بقدمه وبرأسه، والدماء غطت وجهه، صار يضرب، ويضرب.. حتى تهاوى وانطرح أرضاً، وعيناه عالقتان بالجدران.. لا حركة .. لا صوت.. لا حياة..!

فى اليوم التالى ذهبت وفاء لزيارة حبيبها، وقد كانت المفاجأة عندما علمت بموت زوجها.. عرفت وقتذاك لماذا جاش فى خاطرها بالأمس شريط ذكرياتها.. راحت تصرخ، وتصرخ، بينما صراخاتها بدأت تختنق فى صدرها حتى فقدت وعيها.

يا لسخرية القدر.. شيء غريب أن ينتظر المرء أملاً ضائعاً يتكيء عليه، ويمضى وراءه إلى الأبد.. ما أبشع ألا تعرف كيف تعيش، وفى نفس الوقت كيف تموت؟ ما أغرب أن تصرخ، وتصرخ إلى أن تتطاير صرخاتك عبر الهواء تبحث عمن يبرأ جرحها، ولا تجد أمامها سوى أن تعود وتحط ثانية فى أذنك!!

لا فائدة من الصراخ.. فقد لعبت الأقدار دورها، وعرفت الأشجان طريقها فى حياة وفاء.. مات مخلص، واختنق الحلم فى أغوار الحزن الساكن فيها.

الصمت خيم على المنزل، تألمت وفاء كثيراً لحزن طفليها على والدهما الذى لم يرياه .. بالرغم من الحياة التعسة التى تعيشها إلا أنها أرادت أن تنزع الحزن الذى سكن نسمة ووحيد.. كانت تحافظ على أمرين هامين هما كل سلوتها فى الحياة أولهما زيارتها الدائمة إلى

حديقة الأحلام!! التى تعارفت فيها على شهيدها، والأمر الثانى زيارتها قبر زوجها.

كانت تجلس فى حديقة الأحلام تتأمل ذكرياتها وسط الطبيعة الساحرة وتنظر من خلف نظارتها.. كانت ترى الأحباب الجالسين فى المقاعد الأخرى يتهامسون.. تتذكر جلستها مع حبيبها وسماع أصوات البلابل وابتسامات الزهور إلى أن ينقضى اليوم وهى سابحة فى تأملاتها.. تعود وتجلس فى منزلها تنتظر الصباح حتى تقطف وردة من حديقة المنزل وتذهب إلى قبر زوجها تضعها عليه.. المكان الوحيد الذى تشعر فيه بسعادتها وغذاء روحها.

مرت الأيام ووفاء تداوم على زيارة قبر زوجها، والسعادة تغمرها يوماً تلو الآخر.. دائماً تتحدث عن زوجها والسعادة التى تجدها عندما تزور قبره.. كانت نسمة ووحيد يجلسان بجانبها يخففان عنها صمتها وهيامها الدائم .. ذات صباح سألتهما وفاء:

ـ هل ستأتيان اليوم لزيارة والدكما؟

قال وحيد متردداً:

ـ نعم يا ماما.. لكن الطقس اليوم شديد البرودة.

جلست نسمة بجوارها وأمسكت يديها وقالت:

ـ نعم يا ماما.. لقد تعبت صحتك كثيراً فى الأيام الماضية.

ـ أرجوكما.. لا تفسدا على يومى.. اليوم أنا سعيدة!!

ابتسم وحيد وقال:

ـ سعيدة !! أريد أن أعرف يا أجمل ماما فى الدنيا سر هذه السعادة ؟

ـ اسمع يا وحيد أريدك أن تحضر بعض الشموع ولوازم الاحتفالات والمسرات.

ضحكت نسمة وقالت:

ـ مؤكد .. ماما تعد لنا مفاجأة.

قالت وفاء بسعادة وقد أحمرت وجنتاها وبدا عليها الخجل:

ـ ليست هناك أية مفاجأة .. كل ما هناك أننى أريد أن أحتفل...

فى مثل هذا اليوم.. تزوجت من والدكما.

احتضنت نسمة أمها، وأخذ وحيد يقبلها فى جبهتها وقال:

ـ عظيمة .. اسمعا.. بمناسبة هذا الحدث السعيد سأتى بكل الحاجيات على نفقتى الخاصة.. وبأمر منى.. قررت أن نذهب جميعاً اليوم لزيارة بابا.

راحت وفاء ترتدى معطفها ونظارتها وأخذت تقطف وردة من حديقة المنزل كعادتها.. فهى قد حولت زهور الحديقة إلى قبر زوجها، بدأت نسمة تستعد للذهاب معها وهى تستعجل وحيد أن ينزل سريعاً..

جلست وفاء تنتظرهما داخل السيارة حتى وصلا إليها... انطلقت السيارة والسعادة تتطاير من قلبها، وما أن وصلت السيارة .. مشت وفاء تتحامل على وحيد وأخذت تضع الوردة على قبر زوجها... فجأة وقفت تمعن النظر حول القبر.. ويا لسعادة قلبها المتطاير، قد وجدت وردة

تنبت بجوار القبر .. غنت العصافير ثانية في مسمعها، وجلست تستمتع بالوردة التي نبتت، تتأمل ذكرياتها.. صارت تحكي بسعادة لأبناءها مشوار عمرها مع حبيبها، تحدثهما عن القيم والمبادئ والمثل التي كان يتحلى بهم والدهما.

أثناء حديثها بدأ الطقس يعتدل شيئًا فشيئًا وبدأت السماء ترسل زخات المطر عليهم.. بدأوا يتأهبون للذهاب، لكن وفاء توقفت فجأة ونظرت إلى السماء.. رأت شعاعًا من الشمس يشرق ويسطع بين زخات المطر الذي يتساقط عليهم.. خلعت نظارتها وأخذت تسير تجاه الضوء واضعة يديها على كتفي أبناءها.. وهي ما زالت تتحدث عن حبيبها!!

تمت بحمد الله

قراءة فى رواية .. معاً .. بلا حدود

محمد قطب

يشير المشهد النقدى إلى ذيوع فن الرواية، وسيادتها على ساحة الإبداع. ومما يعنى أن الرواية تشهد حالة من التألق تجذب اهتمامات الكتاب على اختلاف أبداعاتهم. وراحت تمارس اغراءاتها السردية على فنون أخرى، وتوقع الشعراء وكتاب المسرح، والمقال فى حبائلها الفنية وتقبض عليهم معتصرة أجمل ما لديهم من إبداع.. حتى أضحت هدفا يسعى إليه المبدعون.

ولقد تصور البعض أن الأمر سهل وميسور فوقعوا فى أخطاء فنية ناتجة عن الاستسهال فى سرد الحكايات والوقوع فى وهم أن يكتبوا رواية.. وإذا كان الشاعر - مثلا - قد استعصى عليه أن يعبر عن فكرته شعرا كما تعود، فإن البديل - وهو اللجوء إلى الرواية بجوها المترع بالخيال، والمحتشد بالصراع - والشخصيات - يقتضى معرفة واعية بآليات كتابة الرواية وصناعتها فنيا، حتى تؤتى ثمارها وتؤثر على المتلقى.

إن كتابة الرواية تستدعى الموهبة الخاصة بها ككل فن آخر، ولن يستطيع كاتب أن ينجح فى مشروع الرواية إلا إذا كان قادرا على

توظيف الموهبة توظيا فنيا واعيا.. لحظتها لن تتعارض المواهب الفنية بل ستتصالح لتبيان أقنعة الفكر والخيال لديه.

والأديب محى عبد الحى صاحب رواية «معًا.. بلا حدود» يكتب للمسرح، واهتماماته بهذا الفن واضحة وملموسة وقدم أعمالاً فنية جيدة تذكر له فى هذا المجال مثل مسرحيات «لم الشمل ١٩٩١» وأردية السادة ١٩٩٧ ثم وطن الغرباء ٢٠٠٠ .

وها هو يرتاد عالم الرواية، ويطأ عتباتها المخملية. ويقدم عملاً يقترب من الرومانسية، وشخصيات تحلم بعالم المثل والجمال. وحياة مليئة بالحب، بعيدة عن العواطف الغليظة.. حتى بات الأمر يوحى بإنشطار الذات، والبعد عن مجريات الواقع وتحول النفوس مما أدى إلى الكارثة التى حلت بهم ووأدت الحب والمثال فى قلوبهم.

لقد أطلق الحب سهامه منذ رآها تجلس فى الحديقة، مكتفية بذاتها، بعيدة عن مغريات الخارج. شغلته كثيرا فاقترب منها ثم عرض عليها الزواج. كانت وفاء من أسرة ثرية، تعيش فى فيلا مع أمها على ضفاف النيل وكانت وفاء من أسرة ثرية، تعيش فى فيللا مع أمها على ضفاف النيل وكانت جميلة، فائقة الحسن، وقد أرهقها هذا الجمال الذى جعل الآخرين يهرعون إليها رغبة فى التقرب. ولكنها لم تشعر بصدق المشاعر ورأت أنهم يقفون عند الظاهر الزائل أو الزائف كما وصفته وقررت أن تخفى مظاهر جمالها على الهيئة التى رآها مخلص فى الحديقة. حيث كانت ترتدى البالطو والإيشارب. وتضع النظارة المعتمة على عينيها، وتقرأ فى كتاب أو مجلة.

ومخلص مهندس معمارى أحبها لهدوئها واتزانها.. لكنه حين يقف على حقيقة جمالها وغناها يشعر بالفارق الاجتماعى بينهما.. لكن حبها الحقيقى غطى على هذا الجانب المادى.. وتزوجا وعاشا فى بيت الأسرة، ثم استقلا بمسكن خاص.. ولقد فاز تصميمه الهندسى القائم على حل الأزمة الإسكانية مما مثل لهما غدا أفضل وأجمل.

ومخلص.. شخص مثالى النزعة يحلم بالمدنية الفاضلة التى تخلو من الفوارق المادية.. وهى أزمته التى تلاحقه منذ طفولته.. كان يعشق التصميم ويرى أن المكان قادر على تحقيق المثل العليا التى يصبو إليها.. مكان تشدو فيه الطيور، وترق الانسام ويفيض البشر بالمشاعر الانسانية.

وفى عالم المشروعات تتبدى الوجوه المتلونة، والباحثة عن شهوة المال وجمعه مثل شخصية «ليزا» المستثمرة الأجنبية والقادرة على التغلغل من أجل تحقيق مكاسب مادية، مستخدمة سلاح المال والجمال «كانت السيدة ليزا تقف مع آخرين.. وتمارس نفوذها على كل من تريد أن تخضعه لأمرها..» ولقد ساهمت فى مشروع «أبراج المدينة» الذى قام بتصميمه والاشراف على تنفيذه.

ولقد مارست «ليزا» وغيرها على مخلص اغراءات كثيرة تتسم بالفساد «هناك خامات فى نفس جودة الخامات» وهى بنفس المقايسات والمواصفات المطلوبة وأنا اقترح استبدال هذه الخامات.. إذا تأخرت عن الموعد..» لاح الأمر واضحا، وأطل الفساد من مكامنه، ومارسوا الاغراء معه وعرض عليه الكثير.. لكنه رفض، لكنه فى نفس الوقت لم

يهتم كثيرا بما يحاك ضده، وبما يحدث أثناء البناء، ولم يتخذ موقفا حاسما متصوراً أن الأمور تسير وفق ما صمم ونفذ.

وكان لابد للأبنية أن تنهار، وأن يساق للمحاكمة، ويقضي عمره في السجن، مذهولا مما حدث، وكأنه نازلة سقطت عليه من السماء.. مع أنه كان يعرف طبائع البشر الذى عاش معهم وتعامل..

ولقد أثر ذلك على موقفه أثناء المحاكمة حيث بدا مذهولا، مستسلما، وهو يساق إلى قدره العاتى دون أن يحارب من أجل تبرئته - وهو البرئ - وهى أمور بعيدة عن الواقع خاصة فى موقف كهذا، وكل ما يقوله يصبح هراء وثرثرة، وكشفا لضعف الذات والفكر معا، وإدانة لصاحب الفكر حين يغفل عمن يسعون للنيل منه.. وهو نوع من الشخصيات غير الفاعلة والزائدة عن الحاجة.

وانظر معى ماذا يقول مخلص فى محاكمته لتتعرف على هذا النمط فى الحياة.. وتمل لغته الرومانسية البعيدة عن مقتضيات الدفاع..

(..جريمتى يا سادة هى أننى أحببت كل الناس بصدق.. وأنتم أيها الزملاء - يقصد الذين شاركوا فى البناء من أمثال ليزا - قد ألجمتم صوتى بإتهاماتكم العمياء هذه، أنكم تشعروننى بحبكم الذى انهال علىّ بالجرم ولكن دون أن أجرم..»

ويعلو صراخه المسرحى وكأنه على خشبة المسرح فيقول.. (لست السبب.. السبب يا حضرات ويا زملائى الأعزاء.. هى ضمائركم إننى أفضل أن أصير هكذا على أن أعيش عالمكم الموبوء بالزيف وتغيير الحقائق..»

وتعلو الصيحة الأخلاقية ،.. لن أخلع أبدا جذورى من أصالة هذه الأرض التى تطأونها بأقدامكم.. جريمتى يا سادة أننى أحببتكم جميعا..)

ولقد قامت الرواية على بعدين متداخلين هما.. الحب.. والفساد.. ظل الحب قائما، ينداح فى كل مكان، ويفرش نسائمه الرطبة على كل شئ حتى خفنا على مخلص ووفاء.. من هذا الحب.. وتمنينا أن تستمر حياتهما وفق هذه المنظومة الجميلة، التى شكلت المكان واللغة والشخصية بظلال الحب والوجد الحقيقى.

واعتبر الكاتب الحديقة. مكان اللقاء الأول هو النموذج الذى يجب أن يحتذى ويتخذه المحب مرجعا له فهو المكان الذى (تلتقى فيه العصافير وتطل فيه الأشجار المتمايلة على بعضها.. مكان ترسل فيه العيون شحنات من الحب والحنان القادم من أعماق القلب وتستقبله عيون أخرى تتصل بمثل هذه الموجات الروحانية).

وهو نوع من التعبير ساد صفحات الرواية، وأبان عن طبائع الشخصيات المحبة التى لا ترى فى الوجود سواها.. وهى نقطة الضعف الدرامية فى الشخصية والتى أدت إلى الفجيعة والمأساة وهو ذاهل فى منزل الأمانى الذى تغلغل فى أعماقه كما تقول الرواية.

ولقد أوصله ذلك كله نحو الفاجعة.. وواصلت الرواية طريقها نحو ذلك، فلا مخلص استطاع أن يدافع بقوة عن نفسه وهزمه الحب.. والمثال.. ولم تتركه حيا.

وظل الحب كقيمة بيضاء تجذب الأنظار وتوقع القلوب فى فلك الذهول.. دون أن يدرى المحب إلى أين يضع قدمه.. مصداقا لقول

الشاعر المحب الذى أذهله الحب فأعمى بصره وبصيرته.. (غطى هواك وما ألقى على بصرى).

واستطاع الفساد - البعد الثانى - أن يغزو الحب ويهدم عشه ويصيب قلب «الحورية» الجميلة، ويفرش ظلالا من الأسى على البيت والطفلين الجميلين.

وللفساد طرقه التى تتداخل، وناسه القادرون على سبك الخطط وتنفيذها فى بلادة حس، وقيم مفتقدة. وهؤلاء الفسدة يدعون فى الظاهر الإخلاص ويتبنون الخدمة الوطنية والمساهمات فى مشروعات الدولة التى يعود عائدها بالخير إلى المواطن. وهم مدفوعون إلى ذلك بفعل الحقد، والطمع، وإغواء المال.. وهى صفات سلبية ناتجة عن افتقاد الحب وتبنى قيمه العامة وأهمها الانتماء إلى الوطن.

ولقد تجسد الفساد فى شحاته، وليزا، وسيد،، حين استطاعوا أن يلتفوا حول مخلص ويستثمروا بساطته وثقته فى الآخرين ويوقعوا به، ثم يفوزون بالمغنم المالى دون أية مسألة..

ووسائلهم فى الاغراء تبدأ بالمال وتنتهى بالسكرتيرة الجميلة.

[وجد شحاته طريقة أخرى يساوم بها مخلص فعرض عليه مبالغ هائلة وحاول أن يقنعه بأن معظم المشاريع التى ساهم فيها كانت تتم بهذه الطريقة..» وهى الطريقة التى تستبدل فيها الخامات بأخرى ذات مقايسات مختلفة.

وتلعب السكرتيرة دورها الاغرائى. والذى تأثر به الكاتب عبر المرئيات حين تسرع بإشعال السيجارة له فى حضور رئيسها (وهى

تمعن النظر فى عينيه..) فضلا عن الحفلات التى أقيمت من أجله أو دعى إليها من أجل التأثير على قراراته. وانتقاله إلى (عالم الشهرة).

وهكذا يقتل الفساد الحب ويفرغ المعنى من دلالة، ويسقط الأبرياء فى شبكة، وتتحطم القلوب والأفئدة.. والرواية توجه سهمها تجاه هذا العالم الموبوء، وتدعو إلىّ كشفه وإسقاط رموزه.

وتجدر الاشارة إلى أن النص قد أقام موضوعا موازيا لأحد بعدى الرواية المتمثل فى علاقة الحب بين مخلص ووفاء.. هذا الموضوع له صلة بأسرة مخلص.. إذ ترك أثره النفس على سلوكه ودرجة اقترابه من الآخرين. فلقد أحبت الأم الأرستقراطية الأب وهو متوسط الحال وقاومت إدارة الأهل التى كانت ترفض هذا الزواج. وحاول الأهل بشتى السبل أن يفرقوا بينهما.. حتى مات الابن بفعل الحقد الذى تكنه أسرة الأم، مما يعزى موته إلى سوء النية منهم. يقول النص فى نبرة مأساوية (مات أخى نتيجة أسرة ثرية كل اهتمامهم أن لا تنجب ابنتهم طفلا من موظف.. فقير..).. هذا التوازى الذى يحمل المأساة ساهم فى تشكيل مخلص الذى حمل أيضا مأساته الخاصة به.

لكن الشخصيتين ـ مخلص ووفاء ـ اجتازا تلك العقبة. ومنحا لأنفسهما الدلالة الكامنة للاسهم.. إذ فاض مخلص بالمعنى ـ كما اتسمت وفاء بالمعنى نفسه وأصبح كل منهما سمة على الدلالة التى يحملها.

بقى أن أشير إلى تأثر الكاتب بتقنيات الكتابة للمسرح، وهو أمر طبيعى لأن عطاءه الأدبى ينصب فى هذا المجال.. فتلاحظ أن

الوصف المشهدى قريب من التوصيف المسرحى الذى يحدد فيه الكاتب أبعاد المنظر، وشكل الشخصية ـ ومفردات المكان.. بل وطريقة الأدلاء.

(نظر مخلص إلى هيئة القضاء.. كان القاضى يبدو صارما غليظا غير محدد الملامح، المستشاران ضئيلا الحجم، يتميز شعرهما باللون الرمادى، ذوا وجهين باسمين.. ممثل العدالة طويل القامة صارم الوجه... المناظر كلها تبدو باهته..)

.. كما يبدو التأثر واضحا فى سيادة الحوار على الموقف الروائى.. والحوار يعكس طبائع الشخصيتين فى لحظات الفعل والمواجهة، كما أنه يدفع الحدث إلى النمو.. وقد يطول الحوار ـ حين ينسى الكاتب أنه يكتب نصا روائيا ـ ويقل السرد الذى يحكم عملية الحكى، ومن ثم تغلب عليه نبرة الحوار المسرحى بعباراته الجزلة الفخمة، كما مالت لغة الحوار إلى التقليدية وكثر استخدام أفعل التفضيل الذى يوحى بالمبالغة..

وثمة مبالغة تتأتى من اللغة ذات الطابع الوجدانى المسرف فى رصد المشاعر (بدأ مخلص يسمع نبضات قلبها الذى يصدر ايقاعات موسيقية..)

.. والتركيب اللغوى فى النص الروائى يحتمل التكثيف حتى يقترب من جمالية الحكى وحيويته. انظر إلى عبارة (أخذت وفاء تقود سيارتها..) ما الذى يمنع أن تختزل إلى (قادت سيارتها) ـ إن ذلك يعنى حركة سريعة فى الأداء. والكاتب قادر على تجاوز ذلك حين يخلص لفن الرواية..

محمد قطب

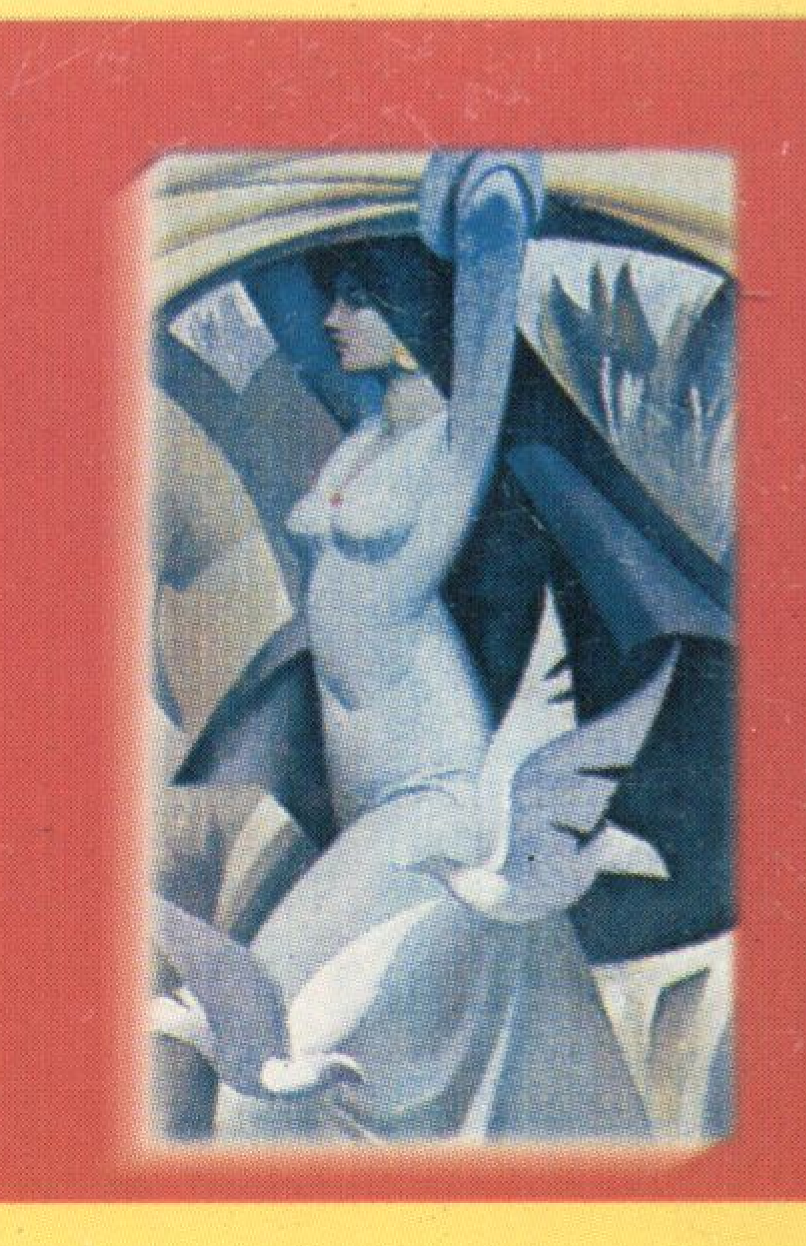
• صدر من هذه السلسلة

اسم العمل	النوع	اسم المؤلف
١ - مرّ قديماً	شعر	سامى نفادى
٢ - أحلو من محبتها	شعر	أحمد خالد
٣ - للنساء حكايات	قصص	هالة فهمى
٤ - المغنى	شعر عامى	محمد حسنى توفيق
٥ - النار والفراشة	شعر	سمير عبد المنعم
٦ - نافذة على غناء الريح	شعر	عمارة إبراهيم
٧ - قيل قل فبكى	شعر	سعد القليعى
٨ - النفخ فى الرماد	شعر	سعد عبد الرحمن
٩ - موسيقا للبراح	شعر	بهاء الدين رمضان
١٠ - الأسئلة .. ديوان الواصلين	شعر عامى	محمود عبد الحليم
١١ - عزيزة	شعر عامى	ماهر مهران
١٢ - الشىء والضد معاً	شعر	كرم الأبنودى
١٣ - المسائل	قصص	محمد عبد الله عيسى
١٤ - أوجاع البراءة	قصص	حمدى عبدالرازق
١٥ - جر الرباب	قصص	أحمد أبوخنيجر

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٤٧/٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7596 - X



معًا .. بلا حدود

بصيص من الأمل تعيش به، تنتظر حلمها المنكسر في سراديب الحياة، آملة عودة حبيبها الذى غاب عنها طويلاً.. تنتظر الفارس الذى سيقتل وحدتها، ويقضى على الحزن الساكن فيها، ويقتلع التعب الكامن وسنوات الملل الضائعة.. إنها تنتظر وتنتظر وما أصعب الانتظار!

ساسى : محمود الهندى
ان: بيكار

١٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب